مكتبة الدراسات الاجتماعية
٧

تاريخ المغول والمماليك

من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري

تأليف
الدكتور أحمد عودات
جميل بيضون
شحادة الناطور

تاريخ المغول والمماليك

الدكتور أحمد عودات
جميل بيضون
شحادة الناطور

٥٦٦ر.ع ٩
أحم أحمد عودات.
تاريخ المغول والمماليك/ أحمد عودات، جميل بيضون،
شحادة الناطور .ـ إربد: دار الكندي، ١٩٩٠.
(١٧٧) ص
ر. أ. (٢٢٢/٤/١٩٩٠)
١ ـ التاريخ العربي الاسلامي ٢ـ المغول ـ تاريخ
٣ـ المماليك ـ تاريخ أ ـ جميل بيضون، مؤلف مشارك
ب ـ شحادة الناطور، مؤلف مشارك، جـ ـ العنوان.
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

دار الكندي ـ إربد

بسم الله الرحمن الرحيم

" اللهم لا علم لنا الا ما علمتنا ، فلك الحمد والشكر على عونك وتوفيقك لنا في اصدار سلسلة مكتبة الدراسات الاجتماعية لطلبة الجامعات وكليات المجتمع .

وبعد،

هذا هو كتابنا السابع من السلسلة ، وهو يتناول المغول والمماليك منذ نشأتهم وظهورهم حتى نهايتهم ، ولعل المغول والمماليك مرتبطان معا لما لهما من علاقات حربية متعددة في بلادنا كان ابرزها معركة عين جالوت التي سحق فيها المغول الغزاة في فلسطين كالصليبيين من قبلهم .

وشمل الكتاب المنجزات الحضارية لكليهما وبخاصة المماليك واثرهم ودورهم في التاريخ الاسلامي .

وقد اعد الكتاب بطريقة مبسطة وبأسلوب يسهل فهمه من قبل ابنائنا الطلاب في بداية خطواتهم العلمية ، وكذلك لمحبي الثقافة التاريخية من اجل تعميق علاقة ابنائنا بتراثهم لتتقد فيهم جذوة الكفاح والتحدى لقيادة الركب الحضارى ورفع راية العلم والمعرفة .

وكتابنا مساهمة متواضعة في نشر الدراسات التاريخية ، ومهما بذلنا فسيبقى العمل ناقصا لان الكمال لله وحده ، واملنا ان لا يبخل علينا اخواننا الاساتذة بتوجيهاتهم وارشاداتهم لنأخذ بها في الطبعات القادمة .

وكلنا امل في الله ان يسد هذا العمل بعض الفراغ ، والله نسأل ان يأخذ بأيدينا الى ما فيه الخير والصواب ، انه نعم الهادى لكل صواب .

المؤلفون

١٩٩٠م



الاهداف العامة للكتاب

١٠ ان يتعرف الطلاب على الخطوط العامة للتطورات التاريخية في شرق العالم الاسلامي خلال الفترة الممتدة من القرن السابع الهجرى وحتى بداية القرن العاشر الهجرى٠

٢٠ ان يتعرف الطلاب على اوضاع العالم الاسلامي (الخلافة العباسية ، الدولة الخوارزمية ، الدولة الايوبية) خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى٠

٣٠ ان يفهم الطلاب كيفية دخول المغول الى العالم الاسلامي ودوافعهم، وقضائهم على الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية ، وبقايا الامارات الزنكية والتركمانية في شرق الاناضول ، وقيام الدولة الايلخانية المغولية في هذه المناطق٠

٤٠ ان يتعرف الطلاب على كيفية ظهور الدولة الصفوية في ايران والدولة العثمانية في آسيا الصغرى٠

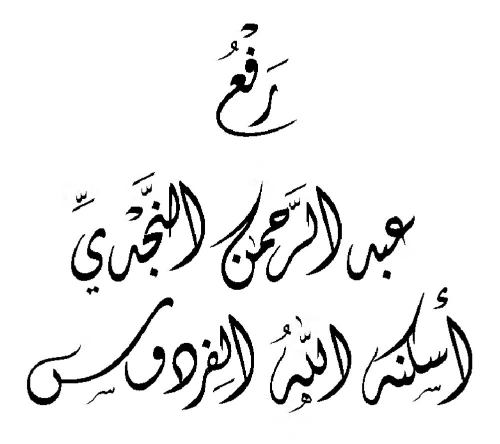
٥٠ ان يميز الطلاب ابرز التطورات الحضارية للدولة الايلخانية ٠

٦٠ ان يدرك الطلاب اهم النظم والمؤسسات التي عرفتها دولة المغول الايلخانية، وبيان اثرها ودورها في تاريخ المناطق التي قامت بها ٠

٧٠ ان يتعرف الطلاب على المماليك وكيفية اقامة دولتهم في مصر وأمتدادها الى بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، وعلاقاتهم مع الدولة الايلخانية والدولة العثمانية٠

٨٠ ان يفهم الطلاب نظام المماليك ، وابرز المنجزات الحضارية لهم في مصر وبلاد الشام ، من تعليم واوقاف وتأليف ٠

٩٠ ان يفهم اثر دولة المماليك ودورهم في التاريخ الاسلامي٠



الفصل الاول

تمهيد :-

أوضاع العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي

١- الخلافة العباسية

٢- الدولة الخوارزمية

٣- الدولة الايوبية



رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الخلافـة العباسـية :-

كان العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي منقسما الى عدة دويلات متنازعة فيما بينها من اجل التوسع كل منها على حساب الاخرى. ولم ينتبه حكام هذه الدويلات الى خطورة الغزو المغولي الا بعد ان وصل الى الدولة الخوارزمية وامتدت الى جزء من الهند وايران واسيا الصغرى واوروبا الشرقية ، كما ان حكام المسلمين المتنازعين لم يعملوا على انشاء حلف يقف في وجه الغزو المغولي قبل ان يستفحل خطره.

فقد كانت تتقاسم السلطة في العالم الاسلامي في ذلك الوقت عدة دول كما ذكرنا ، ففي ايران كانت تقوم الدولة الخوارزمية وفي العراق كانت السيادة للدولة العباسية وفي مصر والشام والجزيرة كانت الدولة الايوبية.

وكانت الدولة العباسية حينذاك تشمل جزء من بلاد العراق يمتد من تكريت الى الفاو ومن حلوان الى عانة واقتصرت سلطة الخليفة في خارج هذه الحدود على المظهر الديني .

وفي بغداد نفسها كانت الخلافة العباسية قبيل حملة هولاكو قد ظهرت عليها علامات الانهيار علما بأن جذور هذا الضعف قد امتدت اليها قبل ذلك بمدة طويلة نتيجة لسيطرة الفرس ثم الاتراك والبويهيين حيث استأثر هؤلاء بالسلطة وطغى نفوذهم على الخلفاء ، وقد ترتب على تهاون الخلفاء وفقدان هيبتهم ان تجرأ الولاة على الاستقلال بولاياتهم والاكتفاء بالولاء الاسمي للخليفة ، وبذلك تمزقت الروابط القوية التي كانت تربط الخلافة بالامصار، هذا بالاضافة الى فساد الادارة وقيام الاضطرابات والاستئثار بالنفوذ دون الخليفة[1]

---

(١) المغول في التاريخ : ص ١٥٥ .

وكل ذلك جعل الخلفاء اذلاء راضون ذلك لاستيرادهم الوزراء والقواد .

والى جانب ذلك فان ثورات العلويين المتتابعة عملت على استنزاف قوى الدولة ، وكذلك عوامل الاضطرابات وفقدان الاستقرار ونقض العهود والتنافس على عرش الخلافة وتردى الاوضاع الاجتماعية بسبب الانغماس في الترف كل ذلك كان من شأنه ان يساعد على اضطراب الامور وان يشيع الفساد في الدولة مما ترتب عليه ضعفها .

وهكذا انفصلت اقاليم الدولة عن جسم الدولة الام حتى لم يبق سوى اقليم العراق وخوزستان ، واصبحت هذه الدولة عاجزة عن مواجهة قوات المغول المتقدمة من جهة الشرق.

وفي هذا الوقت كان الخليفة هو المستعصم بالله اخر الخلفاء العباسيين (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ) ، رجلا مستضعف الرأى غير مطلع على امور الدولة وكان اصحابه يسيطرون عليه وكلهم من اراذل القوم،[١] فكانت اجناس المغول تصله ولكنه لم يستعد لمواجهتهم وكان يقول : (ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليّ اذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا ايضا يهجمون عليّ وانا بها وهي بيتي ودار مقامي)[٢] ، ومع ضعفه فقد كان يعتقد انه قادر على الصمود امام المغول كما فعل من سبقه من الخلفاء مع البويهيين والسلاجقة والخوارزمية اذ كان هؤلاء يستسلمون لامرائهم في حالة ضعفهم وعندما يروا في انفسهم القوة كانوا يتدخلون في انهاء سيطرة هؤلاء الامراء ، فكانت الخلافة ابقى من هؤلاء الحكام.[٣]

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٩٠ .

(٢) ابن العبرى : مختصر الدول : ص٤٤٥٠ .

(٣) المغول في التاريخ : ص ١٥٨ ، جامع التواريخ ص ٢٨ ـ نشر كاترمير .

ولم تكن الامور في بغداد بيد رجل واحد وانما كانت هناك سلطات متعارضة كل منها يتدخل في عملها ، يتنازعون وكل منهم ينقم على الآخر ، فقد اشتد النزاع بين مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم وبين مجاهد الدين ايبك الرواندار الصغير فقد عمل هذا على تهديد الامن ودبر المؤامرات لخلع الخليفة غير ان الخليفة لم يعمل معه شيئا عندما علم بالمؤامرة ، بل على العكس امر بذكر اسم هذا الامير في الخطبة بعد اسم الخليفة ، وهذا الموقف يدل على سوء الاوضاع التي وصلت اليها الخلافة في هذا العهد وتفاقمت العداوة والبغضاء بين الشيعة والسنة حول المسائل الدينية، كما كان هناك خلاف مستمر بين اصحاب الديانات المختلفة حول الامور الدينية والمسائل السياسية ايضا ، ومثل ذلك كان سببا في الفتن والاضطرابات بين السكان، ومثال ذلك انه وقع قتال بين الشيعة والسنة فعهد الخليفة المستعصم الى ابنه ابي بكر لفض النزاع ، لكن هذا أمر بالهجوم على الكرخ مقر الشيعة وقتل وسبى واستباح الحرمات مما كان لذلك اثر كبير في نفوس الشيعة فأثار ذلك مؤيد الدين بن العلقمي احد كبار الشيعة الذى عز عليه هذا العمل فكاتب المغول وحثهم على غزو بغداد واطمعهم فيها بأن كان يطلعهم على ضعف الخليفة ويهون لهم من شأنه [1].

ومما يشير الى سوء الاوضاع في بغداد نفسها قبيل الغزو المغولي اشتداد خطر الفيضان في نهر دجلة ، فاختل الامن وتدهورت الحالة الاقتصادية وخربت الاراضي حتى ان نصف اراضي العراق قد اصبح خرابا [2]، هذا بالاضافة

---

(١) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ، حـ٣، ص٢٠٢، ٢٠٣ ـ الذهبي : دول الاسلام ، حـ٢ ، ص١٩٦ .

تاريخ ابن خلدون: حـ٣، ص٥٣٧ ـ المقريزى : السلوك حـ١،ق٢، ص٤١٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ : حـ١، ص٢٦٢، نشر كاترمير .

الى ان اهمال نظام الري قد ادى الى تحول اجزاء كثيرة من جنوب العراق الى مستنقعات بعد ان كانت اراضيها عماد الاقتصاد العباسي وازدهار حضارتها .(١)

الدولة الخوارزمية :-

انقسمت الدولة العباسية قبيل الغزو المغولي الى دويلات متنازعة متنافرة ، كان من بينها الدولة الخوارزمية او دولة خوارزم.(٢)

كانت هذه الدولة تقوم في ايران وهي تنسب الى مؤسسها (نوشتكين) الذى كان عبدا اشتراه احد امراء السلاجقة ثم شغل منصب " الطشتدار "(٣)

ويذكر انه كان يشغل وظيفة الساقي في بلاط ملكشاه السلجوقي وكانت هذه من اهم وظائف البلاط حيث كان يشرف على الاسمطة التي تقام في المناسبات والاحتفالات ، كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات اثناء الطعام وبعده ،(٤) كما كان يقوم بذوق اصناق الطعام والشراب المختلفة قبل

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام : حـ٤، ص ١٣٥ .

(٢) كان يطلق على كل من الجيش والحاضرة اسم خوارزم ويطلق على حكامها لقب خوارزمشاه او ملك خيوه، وهم من اتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاؤوا من خيوه ونشروا سلطانهم بين نهرى الكنج ودجلة ، وان كان هذا السلطان لم يتوطد تماما بين سكان فارس والهند،وخوارزم او خوارزمشاه " هي كيفا الحالية" (حسن ابرابراهيم : تاريخ الاسلام حـ٤، ص٩٥، هامش رقم ١).

(٣) الطشت دار : هو احد الموظفين الذين يعملون في الطشت خانة اى المكان الذى يحوى الطشت الذى تغسل فيه الايدى والطشت الذى تغسل فيه الاقمشة، وكان الطشت خانة تحوى ملابس السلطان والمقاعد والمخاد والسجاد الذى يصلي عليه السلطان ويعرف بعض الصبيان الذين يعملون في هذا المكان بالطشت داريه (صبح الاعشى : حـ٤، ص١٠ - ١١ .

(٤) صبح الاعشى: حـ٥ص٤٦٩.

تقديمها الى السلطان [1] ، وفي عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م عين حاكما على اقليم خوارزم وتلقب بلقب خوارزمشاه. [2]

ومنذ ذلك الوقت كان يسعى خلفاء نوشتكين الى الاستقلال عن الدولة السلجوقية ، وعندما شعروا بضعفها عملوا على القضاء عليها ليحلوا مكانها، وقد حققوا هدفهم اذ توفي السلطان السلجوقي سنجر سنة ٥٥٢هـ فدخلت ممتلكات السلاجقة في خراسان وفارس في حوزة الدولة الخوارزمية ، واصبحت هذه الدولة تمتد من جبال اورال الى الخليج العربي ومن جبال السند الى حدود الفرات وفي عام ٥٩٠هـ زالت على ايديهم دولة السلاجقة في العراق بقتل ملكهم طغرل بن آلب آرسلان ، وبذلك سيطروا على العراق العجمي وتقلدوا حكم هذه البلاد من الخليفة العباسي . [3]

وقد بلغت هذه الدولة اقصى اتساع لها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه (٥٩٦هـ - ٦١٧هـ) الذي لقب بلقب قطب الدين قبل موت ابيه تكش (٥٦٨ - ٥٩٦) والسلطان محمد هو الذي كان يعاصر جنكيز خان وكان طموحا ولم يكن على وفاق مع الدول الاسلامية المجاورة ومحاولة السيطرة على ممتلكاتها .

فقد استولى على ممتلكات السلاطين الغوريين الذين كانوا يحكمون قسما من افغانستان الحالية وغرب الهند، ثم استولى على اراضي القرخطائيين [4] سنة ٦٠٧هـ، ويعتبر القضاء على الخطائيين خطأ ارتكبه الخوارزميون لانهم كانوا سدا بينه وبين المغول ، فلما زحف المغول لم يكن هناك من يحل دونهم فساروا حتى اقصى بلاد المسلمين. [5]

---

(١) صبح الاعشى حـ٥، ص ٤٦٠ .

(٢) المغول في التاريخ : ص ٢٦ .

(٣) المغول في التاريخ : ص ٢٧ .

(٤) قرة: وكلمة تركية بمعنى اسود خطا هي اسم قبائل جاءت من شمال الصين واستقرت غرب تركستان .

(٥) المغولل في التاريخ ، ص٣٢ .

والى جانب دولة خوارزمشاه كانت تقوم في بغداد الدولة العباسية ، وكان الخليفة آنذاك هو الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢) وكان هذا الخليفة يدرك ان الخلافة العباسية اصبحت ضعيفة من الناحية السياسية اذ انها صارت منحصرة في العراق العربي وخوزستان ، واصبحت عاجزة عن بسط سيطرتها على الاقاليم المجاورة ، فلم يبق للخليفة الا السلطة الدينية وقد حاول الناصر لدين الله ان ينهض بدولته ويوسع حدود رقعتها على حساب السلاجقة الذين لمس ضعفهم وانقسام دولتهم ، فعقد امله على دولة خوارزمشاه ليزيح من طريقه دولة السلاجقة ، غير ان ظنه خاب اذ تبين له ان الخوارزميين يطمعون في التوسع ولا يقل خطرهم عليه عن خطر السلاجقة ، اذ ان تكش في اواخر حكمه طلب ان تقرأ الخطبة باسمه في بغداد[1] ، وقد تجلى هذا الخطر في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذى اراد ان تكون له اليد القوية في بغداد وعندما لم يستطع تحقيق هذا الهدف بالطرق الودية قرر استخدام القوة وغزو بغداد متذرعا بالحجج التالية :ـ

١٠ طمع علاء الدين في ان ينتزع السلطة من الخليفة العباسي ويكون الامر له كما كان الوضع في عهد السلاجقة والبويهيين من قبل٠

٢٠ شعور السلطان علاء الدين محمد بأن الخليفة العباسي لا يحترمه متذرعا بذلك انه اهان رسله الذين بعثهم ليقدموا للخليفة العلم والهدايا التي اهداها الى الحجاج في حين انه قبل ما وصل منها اليه من جلال الدين حسن الاسماعيل المشهور " بنو مسلمان " من خلفاء حسن بن الصباح واحترام رسله وقدم هداياه على هدايا خوارزمشاه٠

---

(١) انظر الكامل في التاريخ : ج٩، ص٢٤١ ٠

٠٣ حصوله على رسائل رسمية مرسلة من الخليفة العباسي الى شهاب الدين الغورى بحثه فيها على مهاجمة السلطان محمد والقضاء عليه ، وذلك عندما استولى على عاصمته غزنه سنة ٦١١ هـ ٠

٠٤ تحريض الخليفة الممالك المجاورة ضد علاء الدين ، فقد حرض القرا خطائيين واظهر الاستعداد للتحالف معهم ومساعدتهم ، كما حرض عليه اتابكة فارس واذربيجان وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمي من الخوارزميين كما تحالف مع الاسماعيلية للغرض نفسه ، فقد آوى بعض رجالهم فقتلوا " اغلمش" نائب الخوارزميين في العراق العجمي٠[1]

غير ان السلطان علاء الدين محمد استطاع ان يخضع هذه القوى ، ولم يبق من الخطر عليه الا الخليفة بما يدبره من دسائس ضده، فصمم على ان يستولي على العراق العربي وخوزستان وبشتى الوسائل ، ولتحقيق اهدافه اعتنق مبادىء الشيعة واعلن ان هدفه من القضاء على الخلافة العباسية اعلان خلافة علوية ليكسب عمله صفه شرعية وليستميل اهالي تلك البلاد الذين يدين اكثرهم بالمذهب الشيعي ، ثم استصدر فتوى من الفقهاء تفيد ان العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من العلويين اصحاب الحق الشرعي فيها ٠ وعليه رأى ضرورة اختبار رجل يتصل بنسب الحسين بن علي بن ابي طالب لا سيما وان الخليفة الناصر لم يستطع المحافظة على الثغور ، وانه خالف كثيرا مما كان يجب ان يحافظ عليه ، فحصل على فتوي بعزله واسقط اسمه من الخطبة والسكة، واختار رجلا علويا اسمه علاء الملك من مدينة تدمر وخطب له على المنابر وضرب النقود باسمه٠[2] وفي سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م وجه علاء الدين محمد جيشه

---

(١) المغول في التاريخ : ص ٣٥ ، نقلا عن سيرة جلال الدين منكبرتي / للنسوى ص٢ ٠

(٢) المغول في التاريخ : ص ٣٦ ٠

الى بغداد والتقى مع الاتابك سعد بن زنكي في اراضي العراق العجمي وانتصر عليه واسره ، وبقي حتى دخل في طاعته [1]، وانتصر ايضا على اتابك اذربيجان " اوزبك ابن البهلوان" الذى اطمعه الخليفة في العراق.

وبعد ان يئس الخليفة العباسي من وجود قوة يعتمد عليها ضد الخوارزميين لم يجد بدا من اللجوء الى جنكيز حيث رأى فيه من يستطيع ان يوقف خوارزمشاه عند حده.[2]

واصل خوارزمشاه زحفه نحو بغداد الا انه اضطر الى التراجع بسبب هبوب عاصفة ثلجية اهلكت كثيرا من رجاله ودوابهم ، وبسبب تقدم المغول نحو بلاده والحاق الهزيمة بجيوش خوارزمشاه مما اضطره الى الهرب الى جهات بحر قزوين حيث مات في احدى جزره سنة ٦٢٠هـ[3].

لقد ادى النزاع بين الخليفة العباسي وخوارزمشاه الى اضعاف الدولتين مما سهل على المغول اكتساحهما .

وفي الشمال الغربي من الدولة الخوارزمية كانت طائفة الاسماعيلية الذين كان ينادي اتباعها باقامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وعرفوا ايضا بالباطنية ، واطلق عليهم الحشاشون لانهم كانوا يستعينون بالحشيش في الترويج لمذهبهم وفي الاغتيال السياسي. وتنسب الى مؤسسهم الحسن بن الصباح الذى استغل فرصة ضعف العالم الاسلامي فأسس هذه الفرقة التي دانت بمبادىء الشيعة المتطرفة. وكانت تهدف الى القضاء على الخلافة العباسية وتوسيع بلادها على حساب الدول المجاورة اشتهر الاسماعلية على انهم محاربون اشداء ، عاثوا في الارض فسادا ونشروا الرعب في النفوس وقاوموا

---

(١) ابن الاثير : جـ٩، ص٣١٣ـ المغول في التاريخ ، ص٣٦ .
كان سعد بن زنكي قد توجه لاحتلال تلك البلاد بتحريض من الخليفة العباسي.
(٢) ابن الاثير : جـ٢، ص٣٦١ .
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ٤، ص١٣٥ .
يذكر عبد المعطي الصياد (تاريخ المغول ص٧٠) انه توفي سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م

السلاجقة وهزوا السلطنة العباسية ، فكان العداء بينهم وبين المسلمين، فقد اغتالوا "اغلمش الخوارزمي ، وكانوا يتصلون بالمغول يستعدونهم على خصومهم.

وهكذا فقد كانت الاسماعيلية عاملا فعالا من عوامل اضعاف المسلمين وخطرا ادى الى زيادة التفرقة والانقسام بين الدول الاسلامية الاخرى.

ان كل ذلك ساعد المغول في مهمتهم عند مهاجمتهم الدولة الخوارزمية[1].

الايوبيون :-

وبعد ان رأينا الحالة التي كان عليها العالم الاسلامي في ايران والعراق سنلقي الضوء على الحالة في مصر والشام والجزيرة فقد كانت الشام ومصر والجزيرة في يد السلاطين الايوبيين ، وكان هؤلاء منقسمين على انفسهم وفي نزاع فيما بينهم ويكيد كل منهم للاخر، فلم يكن لهم هدف واحد يجمع كلمتهم ، كما كانوا في جهاد مع القوات الصليبية ، فقد كان الايوبيون في زمن صلاح الدين دولة متماسكة استطاعت ان تحقق الانتصار على الصليبيين وتقضي على طموحاتهم في الشرق الاسلامي ، غير ان هذه القوة تعرضت للضعف والتفكك بعد وفاة صلاح الدين اذ وقع النزاع بين ابنائه واخوته حول تركته ، فكانوا في خلاف دائم فيما بينهم ازاء ذلك راى العادل اخو صلاح الدين ضرورة توحيد هذه البلاد وتحت حكمه ، ففرض سيطرته على مصر الى جانب الشام ، ومع ذلك بقي قسما من دولة صلاح الدين مستقلا عن مصر ، بينما خضع بعضها لحكم العادل خضوعا رسميا[2]، ونتيجة لهذا

---

(١) انظر المغول في التاريخ ، ص ٤٠ .

(٢) حافظ احمدي: الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ص١٣٠ ـ المغول في التاريخ ص٤١.

الانقسام وهذا التنافر وصل الامر الى استعانة بعضهم بالصليبيين على اعدائهم من الايوبيين .[1]

في ظل هذه الظروف حاول الصليبيون الاستيلاء على مصر ورغم فشلهم في ذلك تمكنوا من اقتطاع بعض اجزاء الشام واستولوا على بيت المقدس من المسلمين حيث بقي في ايديهم الى ان استرده الصالح ايوب سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٤م.[2] واما اسيا الصغرى فقد كان يسيطر عليها السلاجقة الروم ، وكانوا هم ايضا في نزاع مع السلاطين المسلمين بالاضافة الى تناقلهم المستمر مع الروم البيزنطيين في الاناضول.

كل ذلك حال دون قيام حلف اسلامي يستطيع الدفاع عن ارض المسلمين ونتيجة لذلك فان حكام هذه المنطقة كانوا عاجزين عن مساعدة اخوانهم في الشرق اللهم الا انهم كانوا يرقبون بدون اهتمام ما سيحل بهم اذا ما اجتاحهم المغول.

هذه احوال العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي . مناطق تسودها الفتن والدسائس ودول تتنازعها الاهواء وتتصارع فيها المذاهب والآراء فيها عوامل الفرقة والحسد.

لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حدثا مفاجئا وانما كان نتيجة متوقعة لضعف العالم الاسلامي وتهيئة الظروف للمغول لارسال جيوشهم لغزو البلاد الاسلامية والذى كانت بدايته قبل سقوط بغداد بحوالي اربعين عاما .

---

(١) حتي : تاريخ العرب ، ص٦٥١ .

(٢) المغول في التاريخ : ص ٤٢ .

الفصـــل الثانـــي

١. دخول المغول الى العالم الاسلامي

٢. قيام الدولة الايلخانيـــــــة

فـــي ايـــران

والعـــراق

والجزيـــرة

وشـــرق الانـــاضـــول

المغـول :ـ

في منطقة شاسعة من السهوب والصحارى في غرب وشمال الصين ، والتي كانت تتصف بمناخ قارى ، كانت تقطن حوالي ٢٠٠ ق٠م قبائل متنافرة انقسمت الى فرعين كبيرين مختلفتين لغة وهما الاتراك والمغول٠ كانت هاتان الامتان تعيشان على السلب والنهب من الصين حتى بني سور الصين العظيم الذى اوقف اعمالهم التخريبية٠

اما الفرع التركي فقد بدأ بالرحيل باتجاه المناطق الجنوبية الغربية الى الاراضي التي سميت باسمهم " تركستان" وكان ذلك في القرنين السادس والسابع الميلاديين٠

واما الفرع الثاني من شعوب منطقة شمال غرب الصين " المغول" فقد كان يشار اليهم احيانا باسم التتار، وكان هذا الاسم يطلق على احدى قبائلهم التي عاشت في اقاصي الاصقاع الشرقية ، وقد صنف الصينيون القبائل المغولية طبقا لدرجات حضارتهم الى " التتار البيض" شمال الحدود الصينية " التتار السود" شمالهم " والتتار المتوحشون" وهم ساكنوا الغابات الذين كانوا يعيشون على الصيد، ٠

توحيد القبائل المغولية :ـ

قامت عدة محاولات لتوحيد القبائل المغولية قبل ظهور جنكيزخان ، وكان هذا ابن احد زعماء قبائل التتار المتوحشين الذين يعيشون على الرعي والصيد نظرا لان منازلهم كانت تقع بين السهوب والغابات ، لذلك كانوا من الناحية الحضارية اقل تقدما من القبائل المغولية الاخرى ، كان تيموجين الذى استطاع تحقيق انتصارات متتالية على القبائل المغولية قد حصل على لقب جنكيز خان

وهو اللقب الذي لا يزال معناه غير واضح لغويا، قد حصل على تأييد اعيان وزعماء القبائل المغولية.

كانت سلسلة الانتصارات قد انتهت بالقضاء التام على جميع القبائل المعادية، لا سيما ان تيموجين هذا قد استعمل أساليب وحشية في القضاء على خصومه حتى انه كان يلقي بالاسرى في احواض ماء حارة جدا ليثير الخوف والرعب في نفوس الخصوم، وصار ذلك من لوازم حكومته.

استطاع جنكيز خان (تيموجين) ان يحتل الشطر الغربي من منغوليا سنة (١٢٠٦م)، وبلغ من سطوته ان كان حرسه الخاص عشرة آلاف رجل الذين كانوا يؤلفون طبقة ارستقراطية خاصة، وكان لجنكيز خان جيش ذا نظام بسيط يقوم على عشرات ومئات والوف العساكر، اشتهروا بسرعة التعبئة وشدتهم التي لا تقهر، فكانوا يبادرون بالهجوم قبل ان يبلغ العدو التحذير والانذار وكان الجيش يحمل معه ادوات الحصار الضخمة التي لم يسمع بها احد، لذلك كان لا سبيل لقوم من الاقوام التي تهاجم من جيش المغول سوى الاذعان او القتل والنهب المريع، الا ان هذا الجيش كان يسير بنظام دقيق واوامر صارمة، حيث رسخت روح النظام في العساكر المغول، وقد استطاع جنكيز وضع قانون الياسا او يساق سنة ١٢٠٦، وبهذا القانون نظم دولته ليسير على نظامه جميع الامراء المغول خلال حياته وبعدها.

توسع الدولة المغولية :-

اتخذ جنكيز خان عاصمته في قراقورم، واخذ يتوسع نحو الشرق والغرب. وتعتبر الفترة الممتدة من سنة ١٢٠٦م حتى ١٢٢٧م (وفاة جنكيز خان) فترة فتح وتوسع.

احتل جنكيز مملكة هسيا الصينية غرب النهر الاصفر، ثم اخذ يخضع القبائل المتمردة من حوله ، ومن ثم بدأ حملاته على شمال الصين حيث اخضع مملكة شمال الصين بعد دخوله سور الصين سنة ١٢١١م ، استمر جنكيزخان وابنائه في هجومهم حتى سقطت بكين بايديهم سنة ١٢١٥م .

حروب المغول في الغرب :-

بدأ الهجوم المغولي نحو العالم الاسلامي ، بوصولهم الى تركستان الروسية المحاذية للحدود الغربية لامبراطورية جنكيز خان حيث وقع اول صدام بين مملكة خوارزمشاه الممتدة من فرغانة الى بحيرة أرال سنة ١٢١٦م، وكان ملكها يسمى محمد خوارزمشاه الذى كان يقاتل اعداء المسلمين في تلك المناطق حيث استطاع السيطرة على المناطق المحيطة به ، وكان يطمح بالسيطرة على بغداد الا انه لم يستطع تحقيق حلمه نتيجة اخطاء ادارية داخلية ، واندلاع الثورات في اطراف دولته واخمادها باراقة الدماء مما ولد الكراهية بن عناصر السكان مما اضعف الدولة الخوارزمية واسقط هيبتها .

كان السبب المباشر للصدام بين خوارزم والمغول (جنكيز خان) هو ان احد ولاة خوارزمشاه قام بقتل رجال احدى القوافل التجارية المغولية على الرغم من الاتفاقيات التجارية بين الدولتين ، وعلى الرغم من ارسال جنكيز خان لسفارة من اجل حل هذه المشكلة ، فان خوارزمشاه قام بقتل واهانة رسله[1] .

---

(١) يذكر ابن الاثير في الكامل ح٩، ص ٣٦١ . ان الذى اغرى جنكيز خان بمهاجمة خوارزم هو الخليفة الناصر لما كان يتصف به من استبداد وسيرة قبيحة وسوء تفاهم مع خوارزمشاه.

سقوط الدولة الخوارزمية :-

كوّن جنكيز خان اربع جيوش قاد ثلاثا منها ابناؤه وقاد هو الرابع ، فاحتلوا مدينة اترار وقتلوا كل من وجدوه بطريقهم واسروا بقية السكان ثم احتلوا جند وفعلوا بها ما فعلوه سابقا والثالث الى مدينة بناكت والوادي الاعلى على نهر جيحون وكان حظها مثل حظ سابقاتها من التدمير والخراب .

واما الجيش الرابع الذي كان بقيادة جنكيز خان نفسه فقد توجه الى بخارى حيث حاصرها ، فطلب اهلها التسليم فوافق الا انه غدر بهم ، فقتل سلطانها ونهبها واسر من بقي من الاطفال والنساء .(1)

توجه جنكيز بعد ذلك الى سمرقند اكبر مدن الدولة الخوارزمية سنة ١٢٢٠م، وعلى الرغم من الدفاع المستميت لاهلها ضد الغزاة ، استطاع جيش جنكيز خان احتلال المدينة وفعل بها ما فعله بالمدن السابقة من القتل والنهب والحرق والتدمير وبسقوط العاصمة اصبحت بقية المناطق مفتوحة سهلة الاحتلال امام الغزاه المغول، واما محمد خوارزمشاه فقد لاحقته القوات المغولية حتى نزل باحدى السفن الى جزيرة داخل بحر قزوين ليموت بعد فترة وجيزة حيث سقطت دولة خوارزم بموته .

استمر جنكيز خان بحملته التدميرية ليحتل المدينة تلو الاخرى، وكانت خطته الدائمة هي قتل الرجال وسبي النساء والاطفال واحراق كل ما بنته الحضارة الاسلامية في تلك المدن الاسلامية المتقدمة ، وقد تجلت بطولة المدافعين امام الغزاه بدفاعهم عن مدينة جرجانية عاصمة خوارزم التي هاجمها المغول بمائة الف مقاتل ، وقد استطاع المسلمون انزال اشد الهزائم الخطيرة ومن شارع

---

(1) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٩، ص٣٣٢ .

الى شارع كان يقاتل الرجال والاطفال والنساء حتى افنوا جميعا، حيث حطم المغول السد الواقع على نهر جيحون ليفرقوا المدينة بكاملها، وكان ذلك سنة ١٢٢١م .

ثم سار المغول الى مدينة نيسابور، فقتلوا اهلها وسبوا نساءها ولم ينج من القتل الا اربعين من الصناع ، ثم احتلوا هراة وكان نصيبها كسابقتها .

كانت اولى الهزائم للمغول على يد جلال الدين ابن خوارزمشاه في معركة بالقرب من كابل حيث انهزم جيش ضخم امام اتحاد المسلمين هناك ، الا انه بعد انتهاء المعركة اختلفت بعض القادة مع جلال الدين ، ومن ثم قام جنكيزخان باعداد جيش ضخم حيث اخذ يدمر كل ما يلقاه في طريقه حتى انه منع جيشه من اخذ الغنائم التي لا بد من تدميرها ايضا، استطاع جنكيز احتلال غزنة واللحاق بجلال الدين الذى استطاع اجتياز نهر السند، ولم يستطع جنكيز خان القبض عليه او قتله حيث لجأ الى احد امراء الهند فأجاره ، ثم امر جنكيزخان بتدمير غزنة وقتل جميع سكانها ، ثم احتلوا مدينة باميان وقتلوا جميع سكانها الذين كانوا يبلغون مليون ونصف نسمة .

سار المغول نحو همدان التي صالح اهلها واعطوهم الامان ثم اضطر اتابك اذربيجان ان يقدم الطاعة ، ثم ساروا الى بلاد الكرج " جورجيا " حيث خربوها ، فكر المغول في تلك المرحلة بالزحف نحو بغداد الا ان صعوبة جبال اربل في شمال العراق حال دون ذلك ، فعادوا الى همذان حيث نهبوها وقتلوا سكانها ، ثم اردبيل وتبريز، ثم الى غرب قزوين الى بلاد القوقاز فهربوا نحو بلاد الروس ولما حاول هؤلاء الوقوف امام المغول فاحتلوا القرم ثم وصلوا الى نهر الفولجا فهزموا جيوش بلغاريا، واتجه جيش اخر الى قم والرى فخربوا كل شمال ايران الا ان جنوبها لم يتعرض لتخريب المغول كما فعلوا بشماله .

كان من عادة المغول انهم اذا احتلوا مدينة ابقوا الشباب من الاسرى ليضعوهم في مقدمة الجيش لاحتلال مدينة اخرى ثم يقتلوهم ليستعملوا أسرى المدينة الاخرى وهكذا وقد حدث ذلك عندما احتلوا بخارى اخذوا اسراها لحصار سمرقند، وبعد احتلال سمرقند قتلوا اسرى بخارى ثم اخذوا اسرى سمرقند لحصار جرجانية وبهذه الطريقة ايضا احتلوا مرو، حيث اثاروا الرعب في قلوب السكان وفرضوا الذل والمهانة حتى اذعنوا الناس الى نظام صارم فهدموا حضارتهم وقتلوا شبابهم وسبوا نساءهم حتى انه لم يبق ١٠٪ من سكان المناطق التي احتلها المغول ، وقد بقيت اثار الدمار والخراب قرونا عديدة بعد جنكيزخان.

اراد جنكيز خان العودة الى بلاده عن طريق الهند الا انه لم يستطع بسبب تراكم الثلوج في جبال الهملايا، فعاد عن طريق نهرجيحون سنة ١٢٢٢ الى سمرقند حيث وصل منغوليا سنة ١٢٢٥م. وحصيلة اعمال جنكيز خان هو احتلال خوارزم وايران واذربيجان وشمال ايران وبلاد القوقاز حتى وصل الى شرق اوروبا وجنوب روسيا حيث خضعت له المناطق الممتدة من بكين شرقا حتى نهر الفولجا في اوروبا وقد توفي جنكيز خان بعد ان تجاوز السبعين من عمره سنة ١٢٢٧م.

ان اعمال جنكيز لا يضاهيها اعمال سابقة او لاحقة من الرعب والتدمير والعنف والمذابح والقضاء على ما بنته يد الانسان المتحضر.

تولى اوكيتاي الابن الثاني لجنكيز خان بناءً على وصيته والذي اختير خانا سنة ١٢٢٩ وسار على خطة ابيه في التوسع، حيث انه بعد استقرار ملكه، التفت نحو الغرب ثانية حيث استطاع جلال الدين خوارزمشاه ان يستعيد القسم الغربي من خوارزم ويمد نفوذه ويمد نفوذه حتى جورجيا حيث خضعت له كرمان وفارس والعراق العجمي، واذربيجان واتخذ عاصمته في اصفهان وتبريز

الا ان جلال الدين دخل في صراع مع الايوبيين مما اضعف قوته ، وفي الوقت نفسه قام اوكتاي خليفة جنكيز خان بارسال جيش عدده ٣٠ الف مقاتل سنة ١٢٣١م فاحتل هؤلاء مدن الري وهمذان وقصدوا اذربيجان ورغم ان جلال الدين استنجد بالامراء المسلمين وتحذيره لهم من عاقبة عدم الوحدة ضد العدو المشترك فانهم لم يساعدوه لما بينه وبينهم من عداء سابق .(١)

لم يستطع جلال الدين ان يلقاهم او يمنعهم من تخريب البلاد مرة اخرى، فوصل المغول الى ديار بكر والجزيرة في شمال العراق فاذعن لهم السلطان ، واخيرا قتل جلال الدين خوارزمشاه على يد احد الاكراد عام ١٢٣١ وكان يعتبر اخر سد يقف امام المغول وبقية بلاد الاسلام كما قال الاشرف موسى.(٢)

وعندما ظهر المغول في اعالي الفرات اصيب اهل الشام بذعر عظيم، حيث توقع الناس هجوم المغول بين الفينة والاخرى على دولة الخليفة العباسي في بغداد تليها الشام ومصر واسيا الصغرى ، وعلى الرغم مما اثاره المغول من الخوف والرعب في نفوس الامراء المسلمين لم يؤد ذلك الى اتحادهم بل بقيت النزاعات مستمرة بينهم.

بدأ الهجوم المغولي الجديد على دولة السلاجقة في اسيا الصغرى وبعد هزيمة الجيش السلجوقي اضطروا الى قبول معاهدة مع المغول مقابل دفع جزية كبيرة ، وكانت هذه في عام ١٢٤٣م بداية وايذانا بسقوط دولة السلاجقة.

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج٩، ص٢٨٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦، ص٢٧٧ .

المغـول فـي ايـران :-

بـعـد احتـلال المغـول لفـارس صـارت تـخضـع لحكـم مـوقـت وهـو حكـم بـــادارة عـسـكريـة للقـادة فيهـا سـلطات مطلقـة ، وكـان مـن اشـهـر قـادة الحكم هنـــاك تشـورمـاجـان المعـروف بميولـه المسـيحيـة ، والـذى قـدم اليـه احـد الدعاة المسيحيين وهـو سمعـان المسـيحـي السـريانـي ، الـذى اصـبح مسـوولا للنظـر فـي امـور الديانـة المسـيحية وحمايـة المسـيحيين الـذيـن ارتضـوا بالسـيادة المغوليـة.ثم اصبحت القيـادة بعـده لبينجـو منـذ سـنـة ١٢٤٢م ، والـذى اسـتقبـل سـفارة مـن قبـل البـابـا فـي رومـا ، الا ان بيجـو رفـض مـا طلبـه المنـدوب البـابـوى بـأن يخضـع المغـول للسلطة الروحيـة للبابـا ، ومـن ثـم ارسـل نـائـب الخـان فـي ايـران الـى لـويس التاسـع بـأن المغـول عـازميـن علـى حمايـة المسحيين.

اسـلام ايلخـانات[1] ايـران :-

فشـل المسيحيون فـي كسب ايلخانـات ايـران الـى جانبهـم بشـكل كامل رغـم انهـا نجحـت بعـض الشـيء فـي جعـل الايلخانـات الاوائـل منهـم يسيرون علـى سـياسة العطـف حيـال رعاياهـم المسـيحيين وسـوء المعاملـة لرعاياهم المسلمين ، الا ان هـؤلاء لـم يجـدوا بـدا مـن اعتنـاقهـم ديـن رعاياهـم وهـو الاسـلام ليسـلس لهـم القيـادة وليضمنـوا لانفسـهـم ذكـرا فـي قصـة تاريـخ هـؤلاء الرعايـا .

كـان اول مـن اعتنـق الاسـلام مـن ايلخانـات ايـران هـو الايلخان نكـورد، وقـد ارسـل الـى بغـداد يعلـن اسلامـه ، كمـا ارسـل ذلـك الخبـر الـى سلطان مصـر ، ثم تبـع ذلـك ان دعـى مغـول ايـران الـى اعتنـاق الاسـلام ، حيـث اسـتعمـل الشـدة حينـا واللين

---

(١) ايلخانـات : لقب سلاطيـن المغـول.

والاقناع احيانا مع المغول ، وكان من اثر ذلك ان اعتنق الاسلام عدد كبير من اتباعه ، الا ان اعيان المغول تآمروا عليه وقتلوه ، وعينوا ايلخانا مكانة وهو غير مسلم ، الا ان هذا ومن تلاه من الايلخانات ابقوا على التعاون مع المسلمين حتى ان العملة كان ينقش على احد وجهيها الشهادتان.

الا ان انتصار الاسلام المؤزر كان حين اعتنقه الايلخان غازان ابن ارغون خان الذي جعل الاسلام دين الدولة الرسمي كما دخلت القبائل المغولية في الأسلام على اثر دخوله فيه.

كان اعتناق غازان الاسلام في عام ١٢٣٥م على ما اتفق عليه اكثر المؤرخين وقد اسلم معه عدد كبير من ضباطه يقدر بمائة الف ، وقد حسن اسلام غازان وقد اشتهر بالتقوى والورع يحترم مجالس العلم الاسلامية وقد كان غازان شيعيا غير متعصب حيث لم يحرم الطوائف الاسلامية الاخرى من رعايته وأنشأ المدارس لجميع اتباع المذاهب الاسلامية.

بعد غازان خاه كان الايلخانات الذين حكموا في ايران مسلمين وظل حالهم كذلك حتى زالت دولتهم قرب منتصف القرن الثامن الهجري.

كان لإسلام ايلخانات ايران اهمية كبيرة حيث جعلوه دين دولتهم الرسمي حيث جعل الاسلام هؤلاء الحكام يحسون بحب لرعاياهم وعطفهم عليهم ويميلون الى العمل على رقيهم وتحسين حالهم.

فمن الناحية السياسية نجد ان الايلخان يسير على اتخاذ اعوانه من الوزراء والقواد من المسلمين.

وفي الناحية الاجتماعية فاننا نجد ان الايلخان لا يكتفي بصبغ حياته الخاصة وتصرفاته بالصبغة الاسلامية ، بل يتعدى ذلك الى رفع المظالم عن طبقات الشعب المظلومة طبقا لما تمليه عليه الشريعة الاسلامية ومحاربة شروب

الفساد المختلفة مثل شرب الخمر والبغاء والربا والتفوه بالفاظ الكفر وكذلك تدعيم وتماسك الاسرة بوسائل اقتصادية ترمي الى زيادة دخلها ورفع مستوى افرادها الاجتماعي.

وفي الناحية الدينية نجد ان الاغلبية المسلمة من سكان ايران منذ عهد غازان قد استفادت فائدة كبرى ، وقد اعاد الاسلام الى مركزه الذى كان يشغله قبل غزو جنكيز خان ، وقد كان اعتناق غازان الاسلام نعمة على فارس ، واصبحت الروح الاسلامية قوية في امبراطورية المغول كلها.

ومن مظاهر عز الاسلام وارتفاع شأنه في عهد غازان خان في ايران ان المغول حذوا حذو هذا الايلخان العظيم واعتنقوا الاسلام ، وان المساجد اصبحت تبنى بكثرة في المدن والقرى وان الاوقاف الاسلامية اصبحت كثيرة ومصانة، وان الشريعة الاسلامية اصبحت متبعة ، وقد شجع الناس على تأدية فريضة الحج وظهور المسحة الاسلامية في كثير من امور الدولة واصبحت العمامة زى البلاط الرسمي واصبح اسم الله والرسول يكتب في مفتتح الاوراق الرسمية.

وفي الناحية العلمية والادبية والفنية نجد ايضا ان اسلام غازان كان لـه اكبر الاثر واعظمه ، فقد تقدمت العلوم الدينية الاسلامية وكثر انشاء مدارس العلم الاسلامية ، فظهر المؤلفون بالعلوم الاسلامية ، في علم التفسير والحديث.

المغول في العراق :-

كان احد احفاد جنكيز خان قد امر ان يتولى اخوه هولاكو النيابة عنه في ادارة حكومة فارس ، وقد امر هولاكو بأن يتخلص من سلطتي امارة الاسماعيلية في فارس والخلافة العباسية في بغداد لتمتد قوانين جنكيز خان من جيحون حتى اطراف مصر.

جهز هولاكو قواته بكل ما تحتاجه من سلاح وخيل وادوات ضرب وتدمير وبناء الجسور ومد الطرق وتوفير العربات والمراعي لخيول العساكر .

كانت العقبة الاولى امام هولاكو قوات الطائفة الاسماعيلية التي لم تستطع دولة من اخضاعهم ، حتى ان كثيرا من الامارات كانت تقدم لهم الجزية والطاعة، وقد كانت مراكز الاسماعيلية في ايران في منطقتين رئيسيتين وهما الطالقان وقلعة آلموت بالاضافة الى خمسين قلعة اخرى كانت طليعة جيش هولاكو بقيادة كتبغا ، فحطم عددا من قلاع الاسماعيلية ، ولحق به هولاكو سنة ١٢٥٦م ليحطم قلاعهم الواحدة تلو الاخرى ولم تستعصي عليه سوى قلعتي ميمون دز ، والموت ، وبعد محاصرة قلعة ميمون استطاع هولاكو ان يخدع قائدها ركن الدين خورشاه ان يستسلم مقابل الابقاء على حياته الا انه قتله هو واقاربه واعوانه بعد ان استفاد منه ، كما ان هولاكو امر بقتل جميع افراد الطائفة بعد ان جمعهم مدعيا انه يريد احصاءهم ولم يفلت منه حتى الاطفال والنساء والشيوخ .

سقوط الخلافة العباسية " في بغداد " :-

بعد القضاء على الطائفة الاسماعيلية ارسل هولاكو رسالة تهديد سنة ٦٥٥هـ ، ١٢٥٧م ، الى الخليفة العباسي لامتناعه عن ارسال المدد له لمحاربة الطائفة الاسماعيلية ، وهي الذريعة التي اتخذها المغول لمهاجمة بغداد، وكان من ضمن طلبات هولاكو ان تكون له الهيمنة على بغداد .

كان رد الخليفة بأنه يرفض طلب هولاكو، وان المسلمين رهن اشارته اذا دعاهم لقتاله ، الا انه يفضل السلام على القتال ، وقد استشار الخليفة رجال دولته فاستقر الرأى على تقديم الهدايا لهولاكو كي يتقوا شره الا ان هذا طالب

بحقوق السيادة على الخلافة ذاتها فرفض طلب هولاكو، فاصدر هذا امره بمهاجمة بغداد، ورغم المقاومة العنيفة التي ابداها اهل بغداد، فقد احاطت قوات المغول بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب .(1)

كان الخليفة العباسي واسمه المستعصم ، وهو السابع والثلاثين من الخلفاء العباسيين ، يتصف بالضعف (قلة الخبرة بالاضافة الى اهتمامه باللهو والغناء . ورغم ذلك فان المدينة ابدت مقاومة عنيفة ، الا ان الهجوم المغولي كان هائلا لقي اثني عشر الف مقاتل من جيش الخليفة مصرعهم في ساحة القتال.

احتل المغول بغداد عام ٦٥٦هـ في ١٠ كانون الثاني ١٢٥٨م حيث سلم الخليفة نفسه مع كبار قادة الجيش ، وكبار موظفي العاصمة دون قيد او شرط، بعد ان وعده هولاكو بالامان فاجهز هولاكو على قادة الجيش وكبار الموظفين، دخل هولاكو قصر الخلافة وكان القتل والمذابح مستمرة في انحاء العاصمة المختلفة ، حيث تعرض للقتل جميع الناس حتى النساء والاطفال وكبار السن ، استولى المغول على كل ثروات بغداد من الجواهر والاموال.

استمر ذلك ما يقرب اربعين يوما ، فمن قتل للناس وحرق للبيوت وتدمير للحضارة والعلم امر هولاكو بالكف عن القتل وترك بغدا خوفا من انتشار الامراض بين جنوده.(2)

بسقوط بغداد انتهت عاصمة الحضارة في العصور الوسطى، وسقطت الخلافة رمز تجمع المسلمين ، وباستئصال الخلافة العباسية اصبحت زعامة المسلمين شاغرة يتطلع لاحتلالها كل زعيم طموح من المسلمين .(3)

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية جـ١٢، ص٢٠٠ .

(2) ابن كثير، البداية والنهاية جـ١٣، ص٢٠٣ .

(3) رونسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣، ص٥٢٣ .

المغول في بلاد الشام :-

كانت بلاد الشام بعد احتلال بغداد واقعة تحت نفوذ الصليبيين في مناطق السواحل الشامية في كل من فلسطين ولبنان وسوريا وكانت غير متحدة وهي بقية الامارات الصليبية في الشرق ، وكانت القوة الثانية من الامارات الاسلامية التي يحكمها الامراء الايوبيون من اسرة صلاح الدين وهي اسرة كردية ، وكان الناصر ايوب حاكم حلب ودمشق اكثرهم قدرة وقوة ، الا ان الامراء مع الاسف لم يكونوا على وفاق رغم الاخطار الكبيرة بوجود المغول الى شرقهم والصليبيين الى غربهم.

في عام ١٢٥٩ اتجه المغول نحو بلاد الشام حيث هبط هولاكو من كردستان يساعده في مقدمة جيشه كتبغا ، احتلوا نصيبين وحران والرها واستباحوا ... ثم نزلوا نحو حلب ؛ حيث حاصروها سنة ١٢٦٠م ، واحتلوها بعد شهر واستمر القتل والنهب ستة ايام ، ثم قبض على باقي المسلمين اسرى حيث بيع عدد كبير منهم في اسواق قليقية ، وفي موانيء الصليبيين بالشام ، ومن المعروف ان مدينة حلب كانت حصينة لم يستطع احتلالها الصليبيون ، وكانت موطنا لحركة الجهاد ضد الصليبيين ، فأثار سقوطها بيد المغول الخوف والفزع في نفوس المسلمين في انحاء بلاد الشام ، فيقدم امير حمص الولاء لهولاكو ، ولما لم تقدم حامية حارم الولاء قام باحتلالها وقتل اهلها عن اخرهم وسبى نسائها .

اتصل امير انطاكية الصليبي مع هولاكو واتفق معه ضد المسلمين

احتلال دمشق :-

كان الناصر يوسف امير دمشق في ذلك الحين ، وانضم اليه امير حماه التي استسلمت بعده الى هولاكو، فاضطر الناصر الى مغادرة دمشق مع جنده نحو

مصر ، ولما وجد اهل دمشق واعيانها ان الامير تخلى عنها تقدموا نحو كتبغا قائد جيش هولاكو مظهرين ولاءهم خوفا من ان يصيبهم ما اصاب اهل حلب فتولى ادارة دمشق حاكم مغولي ، الا ان حامية قلعة دمشق اعلنوا العصيان والتمرد فشرع كتبغا في حصارها في آذار ١٢٦٠ ودكها بالمجانيق فاضطرت للاستسلام ، نهبها المغول وخربوا اسوار المدينة وقتلوا حاميتها وواليها .

اتم كتبغا فتح بلاد الشام بعد اسابيع من احتلال دمشق فهدموا نابلس وقتلوا سكانها ، واغارت قوات المغول على سائر بلاد الشام الى الخليل والسلط وبانياس وبعلبك ، وقد استعمل المغول في بلاد الشام نفس اسلوبهم في التخريب والتدمير ، حيث دمروا الاستحكامات والاسوار والقلاع في حلب وحمص وحماه وبعلبك ودمشق وبانياس ، وقد عينوا على بلاد الشام ولاة من الفرس.

المغول ومصر :ـ

اضطر هولاكو خان ان يعود الى منغوليا بسبب موت مونكوخان واختلاف خلفائه على الحكم ، وتعرض اطراف مملكته الى هجمات من الخارج ، فتولى كتبغا مسؤولية الحكم المغولي في بلاد الشام وكانت علاقاته طيبة مع الصليبيين ، لانه وجد ان التحالف بين المغول والفرنج له اهمية في السيطرة على بلاد المسلمين ، كان يتولى الحكم في مصر المماليك وعلى رأسهم قطز الذي ايده بيبرس واخذوا يعدون العدة للقاء المغول.

في كانون الثاني ١٢٦٠ ارسل هولاكو رسالة الى قطز يطلب منه الاستسلام، ويهدده بأن تصاب مصر كما اصيبت بقية البلاد الاسلامية بالخراب والدمار اجتمع قطز مع القادة للتشاور ، وكان جنده وقادته من المماليك الترك او خوارزم

وكان الاجماع مقاتلة المغول سيما ان هولاكو كان قد رحل باكثرية جيشه الى الشرق تاركا كتبغا ليقود جيش المغول الذين تراوح عددهم ما بين ١٠ ـ ٢٠ الف رجل ، كما ان فرنجه عكا قد وقفوا مع المماليك ضد فرنجه انطاكية والمغول وبهذا استفاد قطز من رحيل هولاكو ووقوف فرنجه عكا الى جانبه حاميا ظهر جيشه ٠

معركة عين جالوت ١٢٦٠م :ـ

صمم قطز على ملاقاة المغول رغم تردد البعض حيث امرهم بالخروج من مصر، والجهاد ضد عدو لا يرحم سواء حاربتوه او استسلموا له ، وكان بيبرس قد انضم بجنده من الشام ، حيث كان منفيا فيها سابقا ، تقدم بيبرس نحو غزة ليستطلع اخبار المغول ، حيث احتلها في تموز ١٢٦٠م ، وكان كتبغا حينذاك في بعلبك ، في ذلك الحين قامت ثورة في دمشق ضد المغول ، فاضطر أن يرسل جزءا من جيشه لاخماد ثورتهم٠

كانت خطة قطز اتخاذ الساحل الفلسطيني طريقا لزحفه اما كتبغا فقد سار محاذيا بحر الجليل " بحيرة طبريا " استطاع قطز اقناع الصليبيين في الساحل الفلسطيني الوقوف الى جانبه بامداده بالمؤن اذ احتاج ، استعمل قطز عكا مرحلة راحة لجيشه للتزود بالمؤن ، والوقوف على تحركات المغول، توجه قطز نحو الناصرة متجها شرقا حيث بلغ عين جالوت في ٢ ايلول١٢٦٠م،وعندما اطمأن على قوة جيشه اخفى القسم الاكبر وراء التلال المجاورة ، وكانت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس ٠ وظن كتبغا انه جيش المسلمين كاملا فوقع في الفخ، فبدأ بالهجوم ، لينسحب بيبرس امامهم نحو التلال حيث كانت المعركة الفاصلة ، وكان النصر المؤزر للمسلمين ٠

هرب جزء من الجيش الذي لا يقهر " جيش المغول" واستطاع احد القادة قتل كتبغا وكان ذلك في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ايلول ١٢٦٠ م.

كان لمعركة عين اثارا بعيدة المدى في مسار تاريخ الشرق ، فلأول مرة يلقى الجيش المغولي هزيمة شاملة ويلقي التدمير الكامل ، وكان حزن هولاكو عظيما لما حل بجيشه الخرافة ، وقد تبع ذلك ان انتفضت دمشق فهاجموا الذين ايدوا المغول ونهبوا دورهم ، فاسترجعها المماليك ثم اتجهوا نحو حلب ليلاحقوا فلول المغول فاسترجعوها وبذلك حرروا كل بلاد الشام من المغول ومن نتائج انتصار المماليك انقاذ مصر من المغول مخربي الحضارة الاسلامية، وبذلك تكون مصر قد احتفظت ببقايا الحضارة الاسلامية التي حطمها المغول من اذربيجان شمالا الى بلاد فارس شرقا وحتى بغداد ودمشق غربا . ونتيجة اخرى لمعركة عين جالوت هو تقوية سلطة المماليك التي بقيت حتى مجيء العثمانيين عام ١٥١٦م .

وقد عجلت تلك المعركة بانهاء سيطرة الصليبيين على الساحل الشامي. كما ان المعركة حمت اوروبا من هجمات المغول المتوقعة ، وعجل في اعتناق المغول الاسلام ، مع العلم ان كتبغا كان يدين بالمسيحية.

وعندما اصبح بيبرس سلطانا على المماليك استغل الخلاف بين هولاكو وبركة خان من قبيلة القبجاق التي ينتمي اليها بيبرس فتبادل معه السفارات وانتقل جيش هولاكو خان في الشرق فلم يستطع ان يعاود الكرة بالهجوم على الشام رغم محاولاته الفاشلة.

وبهذا توقف الزحف المغولي نهائيا عن مصر واصبحت نقطة بالغة القوة في الدفاع عن الشرق الاسلامي.

المغول في ايران " ايلخانية فارس"(١)

ظلت ايران تخضع للحكم العسكري المؤقت ، منذ سيطرة المغول عليها بالقضاء على مملكة جلال الدين خوارزمشاه سنة ١٢٣١م. وكانت سلطات الحكام العسكريين مطلقة وفردية ، وقد اشتهر من هؤلاء تشورماجان وتلاه بيجو.

في عهد تشورماجان ذى الميول المسيحية جاء اليه سمعان السرياني، حيث عهد اليه بالنظر بأمور المسيحية فحماهم هذا من القتل الذى اصاب اكثر المسلمين. وقد اقدم المغول في خراسان كعادتهم على تفريغ البلاد من سكانها حيث اصبحت البلاد خاوية على عروشها ، لا يجسر احد من المسملين ان يسكنها ، هذا على الرغم من مقاومة الخوارزميين الذين قاتلوا التتار ، حتى انهم " كانوا يبقون في معركة واحدة عشرة ايام بلياليها ، يترجلون عن خيولهم ويلتقون بالسيوف ويبقى الرجل منهم يأكل وهو يقاتل "(٢)

وهكذا دانت فارس نهائيا للمغول بعد ان اتم القائد المغولي تشنيتمور سنة ١٢٣١ تدمير ما تبقى من القوات الاسلامية في خراسان.

وقد اشتهر المغول باستخدامهم موظفين اداريين من ما تبقى من اهل البلاد، وقد اشتهر من اولئك الموظفين من الايرانيين المتعلمين والد الجويني المؤرخ المشهور صاحب الديوان اى متولي بيت المال.(٣)

تولى حكم ايران بعد وفاة تشنيتيمور جرجس الايغورى وكان بوذيا ، وقد كان من المثقفين ، وقد الغى هذا نظام جمع الضرائب القديم الذى كان يعتمد على الامراء الذين كانوا ينهبون السكان لحسابهم الشخصي، فوفر للسكان الحياة

---

(١) كانت تضم ايلخانية فارس " ايران والجزيرة واسيا الصغرى" انظر : السيد الباز العريني : المغول ، ص٣٢٦.

(٢) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ،حـ٦ ، ص٢٧٧.

(٣) كان بهاء الدين محمد والد الجويني من بين الاسرى الذين امر الحاكم المغولي بسجنهم في طوس ، فامر تشنتيمور باطلاق سراحه وعينه رئيسا للديوان وظل يشغل هذه الوظيفة حتى مات في اصفهان سنة ١٢٥٣.

الرغدة وقام بحماية الايرانيين من طغيان الموظفين المغول فلم يعد بوسعهم ان يقتلوا الناس كيفما شاؤوا وعلى الرغم من انه كان بوذيا تولى حماية المسلمين من القتل ، وقد اعتنق الاسلام في اخر الامر ، حين استقر في طوس، واقام نظاما ثابتا وادارة مدنية افاد منه السكان الايرانيون والخزانة المغولية على السواء وقد أمر الخان باعادة بناء ايران في عهده .

ثم تلاه بادارة ايران ارغون انما الذى سار على نهج جرجس " كورجز " بان يحمي السكان الايرانيين من عيوب النظام المالي المغولي ومن مظالم الموظفين المغول الذين يبتزون اموالهم.

حكومة هولاكو في ايران :-

قرر مونكوخان المغول سنة ١٢٥١ ان يتولى اخوه الأصغر هولاكو النيابة عنه في ادارة حكومة ايران ، وتلقى هذا أمرا من اخيه ان يتخلص من السلطتين الروحيتين في فارس وهما امارة الاسماعيلية والخلافة العباسية في بغداد .

استطاع هولاكو ان ينفذ خطة اخيه ، عن طريق قائده كتبغا واستطاع هذا ان يوطد سلطة المغول وبالكامل في المدن الكبيرة بهضبة ايران ، وان يستولي على المعاقل الصغيرة التي يملكها الاسماعيلية . ومن ثم استطاع هذا احتلال قلاع الاسماعيلية الكبرى (هي مازندران ، وميموندبز ، وآلموت)، وبالقضاء على هؤلاء استطاع هولاكو ان يقيم حكومة مركزية لم تشهدها البلاد منذ ان الغى نظام الملك فكرة الدولية ، وقد استندت حكومته الى قانون جنكيز خان والادارة الصينية ، وقد اسس هولاكو ايلخانية فارس.(1) وكانت تبرز عاصمتها في

(1) الايلخان هو نائب الخان الكبير، الذى له السيادة على جميع ممالك جنكيزخان والذى صار يقيم في بكين.

اول ، ثم صارت العاصمة سلطانية بشمال غربي ايران منذ ١٣٠٤م ٠

اما سياسة ايلخانات ايران " فارس"(١) فتتلخص بقيام علاقات عدائية مستمرة مع مغول جنوب روسيا ، وحروب اخرى مع بيت جغتاى في تركستان، ثم تبادلت الاعتداءات والهجمات بينهم وبين المماليك لامتلاك البلاد الواقعة على الحدود التي تفصل الشام عن الجزيرة ، يضاف الى ذلك ما كان من علاقات ديبلوماسية طيبة مع الدولة البيزنطية ، وعلاقات اخرى طيبة مع المسحيين في الغرب لمحاربة المماليك٠

اما ديانة المغول ، فانه لم يكن لهم ديانة خاصة بالمعنى المعروف عالميا ، الا انهم كانوا يميلون الى المسحيين لما كانوا يقومون به من مساندة للمغول ، فاكتسبوا عطفهم ٠ فعلى سبيل المثال فقد كان هولاكو يدين بالبوذية وزوجته تدين بالمسيحية النسطورية ، وكانت حاشيته تضم عددا كبيرا من المسيحيين٠

الا ان ابن هولاكو تكودار قد اعتنق الاسلام، وبعده لايلخان غازان الذى حكم فارس من ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤ اعتنق الاسلام وجعله دين الدولة الرسمي ، ونقش على النقد اسمه باللغات العربية والمغولية والتبتية ، على انه حاكم مستقل وليس تابعا للخان الاكبر في بكين ، واتخذ تبريز عاصمة له والتي زخرت بالعمائر، فبنى المدارس والمارستانات (المستشفيات) ومكتبة ومرصدا جويا ، واوقف الاراضي على هذه المنشئات حتى يضمن بقاءها ٠

اما كيف استطاع الاسلام الاستحواذ على المغول مما جعلهم يعتنقونه، فان مرد ذلك الى انه كانت الديانة السائدة بين الامم المغلوبة لهم، هذا بالاضافة الى تأثير التركمان المسلمين الذين سكنوا جنوب روسيا وايران ، وكان هؤلاء اكثر عددا من المغول ، وكان التركمان من اكثر الناس تعلقا

بالاسلام ، وهم اقرب الناس الى المغول من حيث طرائق معيشتهم ، فاستطاعوا امتصاص غزاتهم والتأثير عليهم ، حتى انهم استطاعوا تتريكهم ، حتى ان اسلام المغول تبع عملية التتريك.

اعتنق المغول الاسلام الا انهم لم يكونوا بمستوى الحكام السابقين الذين انتزعوا منهم الحكم ، من حيث تحمسهم لنشر الاسلام.

اما من حيث المذهب فقد كان بعض المغول من السنة ، ومنهم من اعتنق الاسلام على المذهب الشيعي ، وقد كان ايلخانية فارس على ذلك المذهب ، وهذا كان تمهيدا لان تصبح ايران منذ القرن السادس عشر دولة اسلامية على المذهب الشيعي.

اما الدولة الايلخانية من الناحية الاقتصادية فقد ابدت منذ تأسيسها اهتماما كبيرا في التجارة ، حيث كان للتجارة اثر كبير في التبادل الثقافي بينهم وبين الشعوب الاخرى ، حيث استطاع النساطرة نشر الدين المسيحي بين المغول عن طريق تجارتهم معهم ، واما التجار المسلمون فقد استطاعوا رفع المستوى الحضاري في منغوليا ، حتى ان المصطلحات التجارية المغولية فقد كانت من التجار المسلمين الايرانيين ، وكان الاهتمام بالتجارة الى حد كبير امرا مألوفا عند شعوب الرعاة ، وتحقق ذلك بما قام به المغول من فتوحات شاسعة ، فالقوافل التجارية التي كانت تقف امامها صعوبات الحدود اصبحت تسير ما بين البحر والمتوسط الى بكين دون عائق بسبب سيطرة المغول على هذه المناطق الشاسعة ، حيث نجح المغول وتسامحوا مع التجار الايطاليين الاوروبيين الذين وصلوا الى الصين بتجارة وعادوا بتجارة اخرى وعادوا بمعلومات جديدة بالغة الاهمية.

كان هناك طريقان تجاريان احدهما الطريق الشمالي : ويسيطر عليه

خانات القبيلة الذهبية ، والطريق الجنوبي ، ويخضع لسلطان ايلخانات فارس، وان هذه الطرق لم تتأثر بما كان بين القبيلة الذهبية والايلخانات من عداوة.

واما الناحية الثقافية فقد اشتهر المغول بتشجيعهم ، حيث اشتهر اعظم واشهر شعراء العالم وهما الشاعر السعدى ، والحافظ ، كما اشتهر المؤرخ ابن العبرى وهو رشيد الدين ، الذى بدأ حياته طبيبا ثم مؤرخا حيث كتب عن تاريخ القبائل المغولية والتركية وتاريخ جنكيز خان ، كما كتب جزءا اخر بدأه من تاريخ آدم والانبياء وملوك فارس القدماء ، وعصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء حتى سنة ١٢٥٨ م وكان كتابه هذا يدعى جامع التاريخ.

لقد كان تأثير الفتوحات المغولية من الناحية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ذات تأثيرات بعيدة المدى في المناطق التي احتلوها ولفترة طويلة من الزمن ، الا ان النظام السياسي قد تعرض للاضطراب والانهيار.

نهاية ايلخانية فارس(ايران) :-

تعرضت ايلخانية فارس الى عدة مشاكل اقتصادية وسياسية لم تستطع تجنبها. فقد كان من اسباب انهيار هذه الايلخانية ما يلي :-

الصراع على القيادة بين الاخوة : حيث ورثت ايلخانية فارس قوانين الياسا التي وضعها جنكيز خان ، وكانت هذه القوانين على شكل تقاليد، وفرضت ان يكون وريث العرش هو الاقوى من الرجال ، والقوة هنا غير محددة ، وهذه كانت تقاليد الصحراء ، وبسبب بعد المغول مع الزمن نحو المدينة فقد بقي العرف يطبق مع اختلاف على اسلوب تطبيقه ، مما ادى الى الفتنة تلو الاخرى، لذلك خضعت السيطرة على الدولة الى القوة التي كانت سببا في قتل الافضل وسيطرة القوة العسكرية.

هذا الصراع على الحكم ادي الى تطلع كل من يشعر بنفسه الى القوة وجمع المؤيدين حوله الى القفز على السلطة سواء كان من العائلة المالكة او من زعماء المغول. والصراع بين الدولة الأيلخانية والقبائل الذهبية في الشمال وموت الايلخان ابي سعيد سنة ١٣٣٥ بينما كانت احدى الحملات العسكرية متجهة ضد تلك القبائل في الشمال مما ادى الى الصراع بين خلفائه ، فانقسم المغول الى حزبين متقاتلين ، وقد نتج عن ذلك ان بعض الولايات قطعت علاقاتها مع بلاد ايران مثل ارمينية الصغرى وجورجيا ، وبعضها انفصل انفصالا نهائيا مثل سلطنة السلاجقة في آسية الصغرى عام ١٣١٧م.

كما تعرضت ايران الى الموت الاسود وهو الطاعون الذى اجتاح عدة بلاد من بلدان العالم الوسيط وفتك باهلها بقسوة في منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، كما قامت القبائل الذهبية منذ عام ١٣٤٢ ، وفي سنة ١٣٥٧ اخترق بلاد القوقاز خان القبائل الذهبية فاحتل تبريز ، الا ان هؤلاء تراجعوا نحو الشمال ليختلفوا فيما بينهم على الحكم وتنهار دولتهم ايضا .

وهكذا تفتت الملك المغولي تماما في ايران ، حيث انتهزت هذه الفرصة بعض الولايات التابعة للمغول فظهرت عدة دول جديدة ، مثل الدولة المظفرية في كرمان وفارس ، وقد اسس هذه الدولة في خراسان افراد احدى الاسر العربية، وكان افراد هذه العائلة يعملون موظفين في خدمة الايلخانات ومؤسس هذه الاسرة هو مبارز الدين محمد الذى سيطر على سجستان وشيراز التي اصبحت عاصمة ملكه ، ثم هاجم القبائل الذهبية في تبريز عام ١٣٥٨ ، وقد وصلت هذه المملكة اوج عظمتها بسبب تفوقها العسكرى ، الا ان حكمها لم يدم طويلا بعد موت شاه شجاع ابن مبارز الدين اذ تسرب الضعف والوهن اليها بسبب تنافس الاخوة على العرش ، واخيرا فقد طغى عليها طوفان جديد من هجمة

مغولية جديدة بقيادة تيمو وكان هذا الامير القبلي الصغير الذى ولد عام ١٣٣٦ ، وقد بدأ نجمه في الصعود منذ عام ١٣٦٠ فصاعدا ، وقد جرح في احدى هجماته من اجل نهب الاغنام مما سبب له العرج طيلة حياته فغلب عليه اللقب الفارسي" لانج" اى الاعرج والذى حرفه الاوروبيون الى تمرلين.

استطاع تيمور وبعد سنوات من القتال ان يخضع كاشغر وخوارزم ، وانشأ جيشا قويا غالبيته من التركمان ومن القبائل المغولية القديمة ، فاحتل بهم منطقة القبجاق حيث بدأ باحتلال بلاد العجم ، وقد اتبع اسلوبا بربريا اثار الرعب والهلع من جديد في الشرق وفي اسيا الغربية باجمعها ، ومن اعماله بناء ابراج من جماجم القتلى من خصومة في المعركة ، وكان يستعمل اسلوب الخديعة والمراوغة في حروبه وليس على مهارته العسكرية.

وكانت حياة تيمور سلسلة من الحروب والغارات واللصوصية والسلب والنهب ، حتى ان حملاته زادت على حملات جنكيز خان المدمرة ، وقد اختلف عن جنكيز خان وخلفائه انه كان خاليا من الثقافة الاولية ، وانه لم يسهم قط في التطور الحضارى ، انما كان هدفه النهب والسلب والكسب المادى. وقد استطاع تيمور ما بين ١٣٧٩ - ١٣٨٥ جميع بلاد ايران الشرقية ، ثم بدأ بالزحف غربا نحو تبريز واذربيجان وجورجيا وارمينية وشمال ما بين النهرين واخذت جيوشه في ذبح عشرات الآلاف من السكان ، ونهب عشرات المدن وتدميرها ، واعماله الفظيعة لم يذكر التاريخ مثيلا لها خصوصا في اصفهان ، وشيراز من المدن الرئيسية في ايران ، واتخذ سمرقند عاصمة صيفية لنفسه فزينها ، وبعدها اتجه نحو العراق وسوريا واجبر الامراء المحليين على الاستسلام او الهروب حيث اصبح السيد الاوحد حتى سواحل البحر المتوسط وآسيا الصغرى ، ثم عاد ليهاجم الهند نحو نهر السند الى دلهي مسببا لها

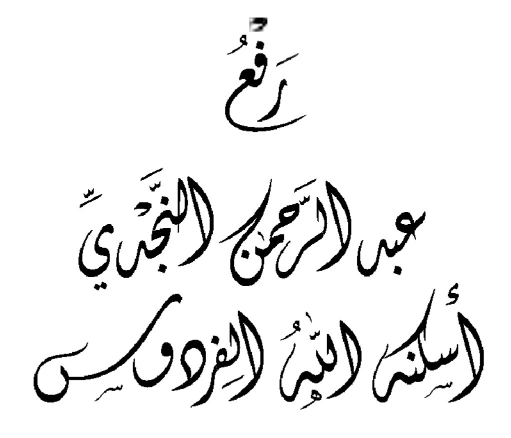
محنة لم تسترد المدينة ازدهارها بعدها الا بعد عشرات السنين ، ثم قرر التوجه نحو تركيا ليخضع السلطان التركي بايزيه فبدأ بالهجوم نحو سوريا فاحتل حلب ودمشق ونشر الخراب في بلاد الشام، ثم توجه شمالا نحو انقرة ليحتلها عام ١٤٠٢ ويأسر السلطان بايزيد ليموت بقفص من الحديد.

وبذلك اصبحت امبراطوريته اوسع من امبراطورية جنكيز خان ، والتي سيطر عليها سيطرة تامة ، لم يكتف بذلك بل اراد العودة للسيطرة على الصين الا انه توفي وهو في طريقه الى هناك سنة ١٤٠٥.

وقد سقطت امبراطوريته سريعا لانها لم يكن فيها اية صفة من صفات البقاء ، وان ابناءه قد بدأت منازعاتهم سريعا مما سارع بانهاء دولته.

وهكذا انتهت سلطة ممثلي الحكم المغولي على اراضي ايران، اذ ان اسرة تيمور لا يمكن ان تدعوها مغولية ، فحكمه وحكم ابنائه ممثل الخصائص والمظاهر التركية.

ظهر الاسرة الصفوية في عام ١٥٠٢ وهم من اصل تركي حيث استطاعوا انهاء اسرة تيموز ليسيطروا على قزوين ، وفارس والسيطرة على اصفهان واتخاذها عاصمة لهم ، واهتموا بالمصالح الوطنية وبلاد العجم ، حيث وجد الصفويون الاراضي الفارسية تحت حكومة ذات قاعدة وطنية مما سبب انبعاث قومي فارسي.



الفصل الثالث

النظم والمؤسسات في الدولة الايلخانية

١- السلطنة

٢- الادارة .

٣- الجيش

٤- الاقطاع مع التركيز على " الياسا ".

السلطنة والادارة :ـ

بعد ان ارسى المغول قواعد دولتهم في عهد جنكيز خان وخضعت له قبائل المغول والتتار اخذ في تنظيم ادارة البلاد، فجعل لادارة شؤونها عشرة وظائف عهد بكل وظيفة منها الى شخص او عدة اشخاص وكانت على النحو التالي :ـ(1)

1. اربعة اشخاص لحمل السهام والاقواس ، واطلق فيما بعد على الشخص الذى يقوم بهذه الوظيفة اسم (فورجي) .
2. ثلاثة اشخاص يقومون بالاشراف على الطعام والشراب ، وصار فيما بعد يطلق على القائم بهذه الوظيفة اسم (باورجي).
3. شخص واحد يقوم بتهيئة المراعي للاغنام.
4. شخص واحد لاعداد العجلات الحربية ووسائل الحمل والنقل .
5. شخص واحد يعهد له بالاشراف على الموظفين والخدم في قصر الخان ويسمى " جربي " .
6. اربعة اشخاص لتناوب الحراسة وحمل السيوف ، وكان كاسار اخو جنكيز رئيسا لتلك الطائفة.
7. اثنان يقومان بالمحافظة على الخيول والعناية بها ومن ثم صار يطلق على الشخص المكلف بهذا العمل اسم " اختة جي" وكان بيلكوتاى اخ جنكيز هو احد هذين الشخصين .
8. ثلاثة اشخاص يكلفون بالمحافظة على مراعي الخيول والمواشي.
9. اربعة اشخاص يلقبون بالسهام القريبة والبعيدة وهؤلاء يعهد اليهم بتبليغ اوامر الخان الى القريب والبعيد .
10. اثنان من النبلاء يعهد اليهما بالمحافظة على النظام في اجتماعات المغول.

---

(1) انظر : المغول في التاريخ : ص ٢٥٥ .

وقد أختار جنكيز خان جماعة من حرسه الخاص كان يطلق على كل منهم كشيلجي (النوبة) منهم ثمانون شخصا لنوبة الليل وسبعون لنوبة النهار، وكان لنظام الحرس الخاص اهمية كبيرة في النجاح الحربي الذى احرزه المغول، وكان عدد الحرس قد بلغ ١٠ الاف ممن عرفوا بالشدة والبأس وكانوا يؤلفون طبقة ارستقراطية ممتازة لان الجندى منهم يكون اعلى مرتبة من قائد الالف رجل في الفرق الاخرى.

وقد اختير منهم الف رجل يطلق على كل منهم اسم (بهادر) اى مبارز وشجاع . وهذا الفريق يقوم على خدمة الخان مباشرة ولا يخرج الى الحرب الا اذا كان الخان نفسه مع جيشه في القتال ، وكانوا يراعون تطبيق النظام بدقة وكان معظم قواد جنكيز من حرسه الخاص ويخضعهم لاحكامه القاسية ، لذلك فانهم كانوا لا يطيعون الا امر الخان وكذلك كان جنودهم آلة طيعة في يد جنكيز خان.

وكانت طبقة الامراء من اسرته تأتي في المقدمة ، بينما كان يطلق على اشراف الجند لقب (ترخان) ، وهم معفون من الضرائب ولهم حق الاستيلاء على الغنائم التي يحصلون عليها بالحروب ويسمح لهم دخول بلاد الخان دون استئناف ويقدمون في المناسبات المختلفة على غيرهم. وكانت العادة ان يسقيهم الخان نفسه كأسا من الشراب .(١)

الجيش المغولي :

كان المغول يعيشون حياة قبلية وكل رجل في القبيلة كان يعتبر بمثابة جندى يدافع عن قبيلته اذا ما دعت الحاجة. كما كان كل واحد من افراد القبيلة

---

(١) المغول في التاريخ : ص ٢٥٨ .

على استعداد لخدمة قبيلته وحمل السلاح والانضواء تحت رايتها والطاعة لزعيمها اذا ما تعرضت البلاد لعدو اجنبي او اذا هاجمت قبائل المغول اقليما من الاقاليم ٠

ويختلف نظام تدريب الجندى المغولي عن نظام الجندى المملوكي من حيث التربية والاشراف والرواتب٠ ومنذ عهد هولاكو كان لكل طائفة من المغول قطعة من الارض يتوارثها الخلف عن السلف يعيشون عليها ، فكان المغولي راعيا في السلم وجنديا في وقت الحرب[1] ، واما تدريب الجيش المغولي فكان طبيعيا اذ كان كل جندى يدرب نفسه في وقت السلم على ما سيقوم به في ميدان القتال ويجهز الاسلحة اللازمة للحرب ويتدرب على استعمالها بنفسه من خلال عمليات الصيد ٠

ومن صفات المغول الطاعة التامة في السلم والحرب[2] ، كما ان من طباعهم الغدر وعدم الالتزام بالعهود، فكانوا يرتكبون الجرائم والفظائع ضد المدنيين فلم يكونوا يستثنون طفلا ولا امرأة ولا يرحمون مريضا ولم يحترموا عالما وقد ذكر ان احدهم دخل شارعا فقتل فيه اربعين طفلة دون شفقة او رحمة[3]٠

فكان من مميزاتهم الرئيسية الاستهتار بارواح البشر وارتكاب الجرائم وكل اصناف القسوة والتخريب والتدمير والتعذيب حتى ساد الاعتقاد عند الناس ان المغول قوم لا يهزمون يقول ابن الاثير في ذلك :

" من حدثكم ان التتر انهزموا واسروا فلا تصدقوه واذا حدثكم انهم قتلوا فصدقوه "[4]

---

(١) صبح الاعشى : حـ٤، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ ٠

(٢) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول : ص ٣٢ ٠

(٣) مصطفى طه بدر، محنة الاسلام الكبرى او زوال الخلافة العباسية والبغداد على ايدى المغول ، ص ١٤٢ ٠

(٤) الكامل في التاريخ : حـ٩، ص ٣٣٩٠ (مطبعة المكتب الثقافي بالجيزة، ١٩٤٧م)٠

وكان الجيش المغول منظما تنظيما دقيقا، فكان ينقسم الى فرق كبيرة يتكون كل منها من عشرة الاف رجل وتسمى (تومان)، واول فرق الجيش المغول تتألف من مائة الف جندي يسمونها (التوك)، تليها فرق العشرة آلاف التي تسمى (تومان) ، وتنقسم هذه الفرقة الى فرق اصغر منها تتكون كل واحدة من الف رجل تسمى(منجان)، ثم فرقا من مائة رجل تسمى(دن) وفرقا من عشرة رجال تسمى (اربان)، وكان لكل فرقة قائد وجميع القادة يرتبطون مع الخان الاعظم رئيس الامبرا طورية ، ويتم اختيارهم بالمعرفة والخبرة والمهارة في القيادة.[1]

وكانت المخالفات تقع على كل من يهمل بواجبه قائدا كان ام جنديا، وتتم الترقيات وتعطى المراتب حسب الكفاءة والاستحقاق[2]، وكان يسجل كل جندي في الديوان التابع له وعلى كل طائفة منهم في الديوان فارس معين.

واما بالنسبة للامراء فكانت طبقتهم تأتي في المقدمة دون سواهم ويقال لهم (نوين اونويان) وهم اربع طبقات .

١. امير عشرة آلاف ويعبر عنه بأمير (تومان).

٢. امير الف .

٣. امير مائة.

٤. امير عشرة.

وكان على رأس هؤلاء الامراء امير الامراء او قائد الجيش ويسمى(بكلارى بك) او كبير الامراء.[3]

---

(١) المغول في التاريخ : ص ٢٥٨ - الشرق الاسلامي ص ١٤٣ .

(٢) المغول في التاريخ : ص٢٥٨ .

(٣) صبح الاعشى : جـ٤، ص ٤٢٤ - ٤٢٨ - المغول في التاريخ ص ٢٥٧ .

وكان هؤلاء الامراء الاربعة لا يتم ابرام امر من الامور الا بعد اخذ موافقتهم او من ينوب مكانهم ، كما انهم لم يكونوا يبرمون امرا الا بمعرفة الوزير واستشارته فهو يمثل السلطات المدنية في الدولة.[1]

ولم يكن الوزير يشاور السلطان الا في الامور الهامة جدا وهو السلطان حقيقة وصاحب البلاد معنى واليه ترجع الامور واليه عقدها وحلها .

وكان المغول يضعون خطة لحملاتهم العسكرية ،فكان يجتمع المجلس العام (الكورلتاى (القوريلتاى) ، برئاسة الخان الاعظم والقادة والامراء والضباط ويعرض عليهم المشروع وبعد المناقشة توضع الخطة الحربية ، ثم بعد ذلك ترسل العيون او الجواسيس للحصول على معلومات كافية عن العدو وحصونه ومدنه ، لاستخدامها في قتال العدو، وكان المغول يستخدمون الاعلام والرايات للدلالة على قواتهم ، كما كانوا يهتمون بوسائل المواصلات وطرقها[2]، واسلوبهم في القتال الكر والفر والالتفاف ، وفي حالة مهاجمتهم لاعدائهم كانوا ينادون بأصوات عالية لايقاع الرعب في قلوبهم ، وكان المغول يعملون على نشر التفرقة بين اعدائهم لاضعافهم كما حدث بين علاء الدين الخوارزمي شاه ووالدته تركان خاتون.[3]

وكانوا يقسمون جيوشهم في ميادين القتال الى عدة فرق هي الوسط والجناحان والايمن والايسر ، وكانت قوات الوسط تتكون من فرقتين امامية وخلفية اى مقدمة ومؤخرة ، تتسلح الاولى بدروع كاملة وتحمل عناصرها السيوف والحراب ويغطون خيولهم بدروع تناسبها ، بينما كانت اسلحة الثانية خفيفة مثل القوس والنشاب ، وهي سريعة الحركة يمكنها ان تقدم المساعدة السريعة

---

(١) صبح الاعشى : جـ٤، ص ٤٢٣ ـ جـ٧، ص ٢٦٧ .

(٢) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ٣٤ .

(٣) الدولة الخوارزمية : ص٢١٧ .

للقوات التي تتعرض للضغط والهزيمة.[1] فهي تشبه فرق المشاه التي تتعقب العدو وتظهر خلف القوات الثقيلة على عكس القوات الامامية التي تشبه سلاح الدبابات.[2]

وكانت معاملة المغول لاعدائهم دموية ، فاذا ما فتحوا بلدا بالقوة كانوا يقتلون اهله دون رحمة او تمييز، وكثيرا ما كانوا يستفيدون من اصحاب الحرف والصناعات واصحاب الخبرة العسكرية [3]، كما كانوا يضعون الاسرى في مقدمة قواتهم اثناء القتال ويتعرضون للموت دون ان يجدوا طريقا الى الفرار، وكانوا بذلك ينهكون اعداءهم بقوة الاسرى ثم يأخذ المغول بعد ذلك في القضاء على عدوهم.

وفي ذلك يقول ابن الاثير :[4]" وكانت عاداتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من اسارى المسلمين بين ايديهم يزحفون ويقاتلون ، فان عادوا قتلوا، فكانوا يقاتلون كرها ، وهم المساكين كالاشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر منه ، وكانوا يستخدمون الاسرى في اعمال الحفر وتركيب ادوات الحصار والاعمال الشاقة ..." وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل في المسلمين الاسارى وهم بنجوة منه " .

---

(١) المغول في التاريخ : ص ٢٥٩ .

(٢) العلاقات السياسية : ص ٣٤ .

(٣) المغول في التاريخ : ص ٢٦٢ .

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ج٩ ، ص ٣٣٧ .

الياسا :ـ

كان للمغول قبل جنكيز خان رغم بداية حياتهم وبساطتها مجموعة من الآداب والتقاليد ، غير انها لم تكن مكتوبة لبداوة المغول وعدم معرفتهم الكتابة ، فلما تولى الحكم جنكيز خان نظر في هذه الآداب والتقاليد فأضاف اليها بعض الاحكام ورد بعض هذه التقاليد ، وجعل لما اقره منها صيغة رسمية، فأمر بتدوين هذه الاحكام والنظم بالخط الاويغوري الذي امر ان يتعلمه الاطفال المغوليون ، كما امر ان يحتفظ بالنسخة المدونة في خزائن امراء المغول[1]، واطلق على كل حكم من هذه الاحكام والقواعد اسم " ياسا " ، وتعني هذه الكلمة حكم وقاعدة وقانون ونقرأ هذه الكلمة بصور مختلفة : ياسا وياسة ، ويساق وياساق ويسق ، وتطلق على الحكم الذي يصدره الملك او الامير . وبما ان كتاب الياسا يشمل جزءا كبيرا من الاحكام المتعلقة بالجزاء والعقاب ، وبخاصة اعداد الشخص المذنب فقد صار احد معاني هذه الكلمات القتل والموت.[2]

ويطلق على مجموع هذه الاحكام كتاب " الياسا الكبير " ، " ياسانامة بندكت" ، وكان المغول يعملون وفق ما تشير به الياسا وذلك في الاحوال التالية :ـ

١. عندما يجلس خان جديد على عرش المغول.

٢. عندما يعقد مؤتمر عام يحضره الامراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

٣. في حالة تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال.

---

(١) المغول في التاريخ : ص ٢٢٧ . نقلا عن الجويني : تاريخ جهانسكناى ، حـ١، ص١٧ .

(٢) المغول في التاريخ : ص ٢٢٧ .

وكان جنكيز خان قد اصدر هذا القانون عقب انتخابه خانا اعظم سنة ٦٠٣هـ لانه ادرك انه يصعب عليه جمع كلمة هؤلاء المتعطشين للدماء الا بتشريع قانون يلتفون حوله وينزلون على حكمه ، لذلك كانت مواده تشتمل على عقوبات فيها حزم وصرامة فطبق على المذنبين بلا رحمة ، وبهذا استطاع جنكيز خان توحيد شعوب الامبراطورية ويحتفظ بها في سلام[١]، وحولت المغول من جماعات متخاصمة الى جيوش منظمة تعرف كيف ترسم مخططاتها باحكام.

لقد نظم صدور هذا القانون العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين افراد الشعب بعضهم مع بعض ، وكانت احكام الياسا تتلخص بما يلي [٢]:-

أ. الخضوع لجنكيز خان

ب. الاتحاد في قبيلة واحدة.

حـ. العقاب الصارم لكل مخطيء.

والمتأمل في نصوص الياسا يرى فيها كثيرا من الايجابيات رغم طغيان السلبيات على هذه النصوص ، يقول القلقشندي : [٣]

" ثم الذى كان عليه جنكيز خان في التدين ، وجرى عليه اعقابه من بعده الجرى على منهاج ياسة التي قررها وهي قوانين ضمنها من عقله وقررها من ذهنه رتب فيها احكاما وحدد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية ، واكثرها مخالف لذلك سماها الياسا الكبرى وقد اكتتبها ، وامر ان تجعل في خزانة تتوارث عنه في اعقابه وان يتعلمها صغار اهل بيته منها ان من زنى قتل ومن اعان احد الخصمين على الاخر قتل .. الى غير ذلك من

(١) المغول في التاريخ : ص ٢٣٨ .

(٢) انظر المقريزى : حـ٢، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٣) صبح الاعشى : حـ٤، ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

الامور التي رتبها مما هم دائنون الان وربما وان من تحلى بحلية الاسلام من ملوكهم"٠

ومما شرعه جنكيز خان في الياسا : " قتل الزاني ، ومن تعمد الكذب او السحر او تجسس على احد ، او دخل بين شخصين يتخاصمان واعان احدهما على الاخر ، ومن بال في الماء او على الرماد قتل ، ومن اعطى بضاعة فخسر فيها قتل بعد المرة الثالثة ، ومن اطعم اسير او كساه بغير اذن قومه قتل ومن وجد عبدا هاربا او اسيرا قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل"٠

ومما تضمنته الياسا : انه اذا اذنب احد الامراء ولو كان كبيرا وبعث اليه رسولا لينزل به عقابه وجب عليه ان يسرع الى تنفيذ طلب الرسول وهو خاضع ذليل حتى ينفذ فيه العقوبة التي امر بها الملك ولو كانت العقوبة تقضي بازهاق روحه٠

ومما اشتملت عليه الياساق : من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح ومن وقع ثوبه او شيء من متاعه وهو يكر او يفر في القتال وكان وراءه احد وجب عليه ان ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فان لم يفعل ذلك كان جزاؤه القتل٠

ومن احكام الياسة تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة ما ، والزم الناس الا يأكل احد من طعام غيره حتى يأكل منه اولا ولو كان اميرا ، وان مر احد بقوم يأكلون فله ان يأكل منهم من غير اذن منهم وليس لاحد ان يمنعه، ومنعهم ان يفرق بين الطاهر والنجس كما منعهم من غسل ثيابهم حتى تبلى ، والزم قواده بعرض العساكر والاسلحة اذا اراد الخروج للقبائل وان يعرض كل واحد ما معه حتى الابرة والخيط ، فمن وجد انه قصد في شيء مما يحتاج اليه عند عرضه عوقب ، والزمهم في نهاية كل عام ان يعرضوا بناتهم الابكار على السلطان

ليختار منهم من يشاء لنفسه او لاولاده.(1)

كانت نصوص الياسا محترمة جدا حتى تصل لدرجة التقديس ولم يكن يجرؤ احد على خرقها حتى السلطان نفسه ، وكانوا يخصصون يوما في كل سنة يستعرضون فيه فيما اذا غير السلطان شيئا من احكام الياسا فان عزل وحوكم.(2)

وقد بقيت احكام الياسا سارية المفعول في عهد التيموريين يتبعون تعاليمها وتقاليدها .

وكان المغول يدونون اقوال ملوكهم ويعلقونها بعد موتهم فتصبح مقررة وينزلونها من انفسهم منزلة التوقير والاحترام ، ويطلق على ذلك " بيليك" اي حكمة ، فقد دونت اقوال جنكيز خان وصارت مرجعا لطوائف المغول يستشيرونها في امور حياتهم .

ومن هذه الحكم التي قالها جنكيز (3)

1. لا يؤذ بعضكم بعضا على امور الدنيا فاذا شعر بعضكم بألم من الاخر فليسارع لازالته حالا لتكونوا بمأمن من شرور الاعداء.
2. من تمكن من ادارة عشرة افراد واحسن سوقهم يتيسر له سوق جيش عظيم.
3. ان من يدبر بيته احسن تدبير يتمكن من ادارة المملكة.
4. من تمكن من نظافة بيته يستطيع ان يحرس حكومته من السراق واهل الشقاء.

وقد تضمنت الياسا عقوبات رادعة ضد من يتهم بالسحر والشعوذة بهدف الاضرار بالاخرين ، كما تضمنت احكاما قاسية تنفذ ضد من يقترف الخطايا ،

---

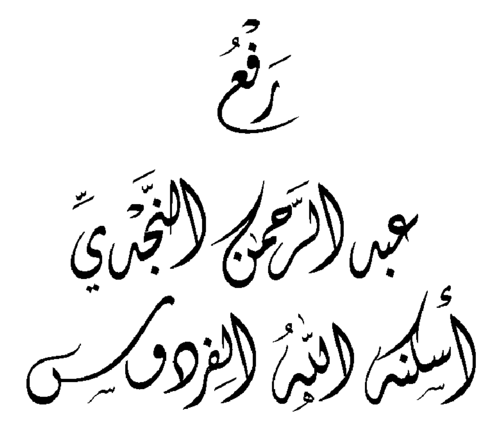
(1) انظر صبح الاعشى ،ج4، ص220 ـ خطط المقريزي ، ج2، ص 240 ـ 221 .
حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج4، ص 137 ـ 138 .
(2) المغول في التاريخ : ص 245 .
(3) المرجع نفسه : ص 246 .

ولا تعتبر الياسا المرء مذنبا الا اذا اعترف بذنبه او قبض عليه وهو متلبس بالجريمة.[1]

وقد ساعدت هذه الشريعة التي وضعها جنكيز خان على تقدم المغول في الجوانب العسكرية والاجتماعية ، فقد اوجدت قوات قوية مزودة بالعدد والعدة وقواد لا يعرفون غير طاعة السلطان وجعلت من النساء عنصرا فعالا ويعتمد عليه عند الضرورة ، فكان اليساق اساسا لبناء النظم الادارية والاجتماعية عند المغول واستطاع جنكيز خان بأحكامه ان بنشر نفوذه في بلاد الصين والبلاد الاسلامية.

---

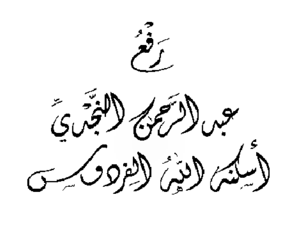
(١) انظر : المغول في التاريخ : ص ٢٥٢ ، وما بعدها.



الفصل الرابع

قيام الدولة المملوكية في مصر والشام

- ٠١ ظهور المماليك
- ٠٢ دولة المماليك البحرية
- ٠٣ دولة المماليك البرجية
- ٠٤ نهاية المماليك



قيام الدولة المملوكية

في مصر والشام

تمهيد :

المملوك هو العبد[1] الذى يباع ويشترى[2] وجمعها مماليك ، وقد اقتصرت هذه التسمية في معظم الدول الاسلامية المتأخرة على فئة من الرقيق البيض الذين كان يجلبهم التجار غير العرب من اسواق النخاسة البيضاء، من شبه جزيرة القرم ، وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ماوراء النهر، ففيهم عنصر الاتراك وفيهم الشراكسة والروم والاكراد وبعضهم من البلاد الاوروبية ايضا ٠

وأول من شكل فرقا عسكرية من الاتراك هو الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨١٣ ـ ٨٤٣م)، اذ عني باقتناء ابناء الاتراك صغارا وعكف على جلبهم من سمرقند وفرغانه والسند واشروسنة والشاش وغيرها من أقاليم ما وراء النهر حتى بلغت مماليكه بضعة عشر الفا[3] وقد امتلأت بهم بغداد مما ادى الى اصطدامهم بالناس في الطرقات ، واثار سخط اهل العاصمة ، فبنى لهم مدينة سامرا لتكون عاصمة لهم ، ومقرا لجيوشه التركية من المماليك والاحرار[4] وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصا من النفوذ الفارسي والعربي في

---

(١) انظر مادة ملك : المعجم الوسيط٠

(٢) ويسمى تاجر الرقيق : خواجا ٠

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٣٢٢ ابو المحاسن- النجوم الزاهرة، ج٢، ص٢٣٣٠

(٤) احمد العبادى : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، ص ١٢ ٠

الجيش والحكومة سواء ، وقد لجأ الى الاتراك بالشراء والتربيه والاعداد اعتقادا منه بأنهم مجردون من الطموح الذى اتصف به الفرس ومن العصبة التي عرفه به العرب،[1] ولكن سرعان ما أخذ اولئك المماليك في التدخل في شؤون الدولة حتى أمست في ايديهم يفعلون بها ما يشاؤون[2] وأصبح الخليفة منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م - في ايديهم كالاسير، ان شاؤوا خلعوه وان شاؤوا قتلوه[3] وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء فأساؤوا التصرف في شؤون الادارة والحكم فانفضت الولايات من حول العاصمة.

وعلى الرغم من هذا المصير المؤلم ، فان السلاطين والملوك حذوا حذو المعتصم وجلبوا المماليك ليحرسوهم وليساعدوهم في حروبهم ، وسرعان ما اصبح المماليك دعاة دمار لاولاد سادتهم ولمماليكهم ، وقلما اتعظ الحكام بذلك.[4]

وكان من الطبيعي ان يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية بعد ان صار منهم الجيش والقادة ، فلما ضعف سلطان الخلافة طمح عمال الاطراف الى الاستقلال بولاياتهم ، وصار الجيش وقادته من الاتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة ؛ فازداد المماليك الأتراك في الدولة العباسية أهمية على أهميتهم ، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة ، غير ان الحركات الاستقلالية ما لبثت ان أغرتهم باقامة دويلات اسلامية في اواسط القرن الثالث الهجري، وجعل هؤلاء المماليك الاتراك جيوشهم من جنسهم ، بل اخذت بعض الدويلات غير التركية بتكوين جيوشها وحرسها من المماليك.

---

(١) Muis : The Caliphate, P. 334 .

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، ط١، ص ٣١.

(٣) ابن طباطبا : الفخرى في الاداب السلطانية ، ص٢٢٠ .

(٤) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي ، جـ٥، ص ١٧٩ .

ومنذ المعتصم توسعت مصر في استخدام المماليك ، وكان جندها دولاتها من المماليك الاتراك بجانب جند الولايات ومن أولئك احمد بن طولون الذي كان مملوكا تركيا اهداه حاكم بخارى نوح بن اسد الساماني في جملة الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠هـ(٨١٥م) ، وتدرج بن طولون في حياة المماليك حتى صار رئيس الحرس الخليفي ، وهذا اهله لان يصبح حاكما على مصر سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، واعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته ، وركز اهتمامه على الجيش بوجه خاص[١] . وأدخل احمد بن طولون وابنه خمارويه الرقيق الاسود والديلم والروم ، واستكثر من شراء المماليك الاتراك حتى بلغت عدتهم اربعة وعشرين الف مملوك ، وبلغ مشترى العبيد والزنج اربعين الفا بينما العرب بلغت عدتهم سبعة آلاف[٢] ويرى ابن اياس بأن عدد مماليك ابن طولون بلغت عدتهم اربعة وعشرين الف مملوك.[٣]

وقد اعتمد ابن طولون كثيرا عن المماليك من الجند والقادة لينشيء منهم جيشا مقاتلا ، وظلت قاعدة التحرير في ايام اسرته .[٤]

وسارت الدولة الاخشيدية على سنة اسلافها الطولونيين في اتخاذ المماليك الاتراك ، وقد بلغ عدد مماليك محمد الاخشيد ثمانية آلاف مملوك،[٥] ويبدوا ان الجيش الاخشيدى اشتمل على عدد كبير من العبيد السود بدليل استلام احدهم

---

(١) احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٦٦ .

(٢) المقريزى : الخطط، جـ١، ص١٥٢ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور، جـ١، ص ٢٧ .

(٤) احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك ، ص٦٧ .

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ، ص٢٥٦ .

وهو كافور الاخشيدى حكم مصر.[1] وانتهت الدولة الاخشيدية بقيام الدولة الفاطمية في مصر ٣٥٨هـ - ٥٦٥/ ٩٦٨ - ١١٧١م.

وقد اضاف الفاطميون بمصر نوعا من المماليك جاؤوا بهم من المغرب عرفوا بالصقالبة، وقد اكثر الخلفاء الفاطميون من المماليك بأنواعهم منذ قيام المعز أول الخلفاء في مصر، فقد اختار الخليفة العزيز (الثاني) لكثير من هؤلاء مناصب قيادية وهامة[2] فولى بنجوتكين قيادة الجيش، ثم ولاية الشام، وولي المقلبي عكا، وبشارة الاخشيدى طبرية، ورباح السيفي غزة، وبرجوان الصقلبي امارة القصر.[3]

وقد اهتم الفاطميون بتربية صغار المماليك، وهم اول من وضع نظاما تربويا للمماليك في مصر[4]، وقد جرت العادة ان يدفع المماليك الصغار الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم "الترابي"، وقد يرتقي اولئك الصبيان حتى يصلوا الى رتب الامراء.[5]

وهكذا يتضح مما تقدم ان الدولة الفاطمية استخدمت المماليك ومن مختلف الاصناف والالوان والاجناس، واستطاع عدد كبير منهم ان يصل الى مناصب الولاية والقيادة.

---

(١) العبادى : قيام دولة المماليك، ص ٦٧.

(٢) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ٤١، ٤٢.

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١١٧.

(٤) العبادى : قيام دولة المماليك، ص ٧٠.

(٥) المقريزى : الخطط، جـ٢، ١٩٤.

وقامت الدولة الايوبيةعلى انقاض الدولة الفاطمية بقيادة الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، والدولة الايوبية كما هو معروف دولة كردية الاصل ، وقد جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية ومماليكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وانظمتها التركية الشرقية وطبقتها في مصر والشام لاول مرة٠

وقد اقتبست الدولة الايوبية معظم انظمتها وبخاصة اسلوب علاقاتها مع المماليك من السلاجقة الاتراك : فقد اعتمد الايوبيون على المماليك كما اعتمد السلاجقة عليهم من قبل ، فتم تنشئة المماليك في البلاط على مقربة من السلاطين وامرائهم [١] ويعد نظام الملك الطوسي هو اساس النظام التربوى المملوكي في كتابه سياسة نامه ، وقد جاء فيه انه " يجب الا يثقل على المماليك القائمين على الخدمة الا اذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي ان يكونوا عرضة للسهام ، ويجب ان يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور ، ولا حاجة الى التكليف كل يوم باصدار الامر بمباشرة الخدمة لمن يكون من الغلمان : صاحب الماء ، صاحب السلاح، والساقي ، واشباه ذلك٠ ولمن يكون في خدمة كبير الحجاب وكبير الامراء ، ويجب ان يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم ، ومن الخواص عدد معين ٠

هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء ، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء٠"[٢]٠

ونظم نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك وكان اشد الناس تمسكا بهم ، فقد احاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك

---

(١) احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك ، ص ٧٤ ٠

(٢) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ، ص١١٣ ٠

النظامية نسبة لاسمه ، فقوى بهم نفوذه.[1]

ويعتبر نظام الملك اول من أقطع الاقطاعات للمماليك الاتراك، فبعد ان كان عطاء الجندى يدفع نقدا صار يعطي اقطاعا،[2] فتسليم الارض الى المقتطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة ، كما فتحت القلاع والمدن والولايات للقادة من مماليكهم الذين سموا بالاتابكة،[3] والجدير بالذكر ان الوزير نظام الملك أول من تلقب بلقب اتابك ، وقد منحه اياه السلطان ملكشاة حين فوض اليه تدبير أمور الدولة سنة ٤٦٥هـ .[4]

وهكذا اتخذ السلاجقة اشخاصا من كبار المماليك اطلق عليهم ليكونوا مربين لاولادهم في القصر ومنحوهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم شؤونهم وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب ، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الاتكابكة اصحاب النفوذ الفعلي في تلك الاقطاعات وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت فاستعلوا بولاياتهم شيئا فشيئا .

والامارات الاتابكية كثيرة العدد، وبيوتها شيء ويجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الاقطاعي الاسلامي ، ومن اشهر بيوتهم :

- بنو ارتق نسبة الى جدهم ارتق التركماني احد مماليك ملكشاه الذين حكموا حصن كيفا (٤٩٥ ـ ٦٢٩هـ / ١١٠١ ـ ١٢٣١م) وماردين (٥٠٢ ـ ٨١١هـ / ١١٠٨ ـ ١٤٠٨م).

---

(١) الاصفهاني : دولة آل سلجوق ، ص ٧٦ .

(٢) اتابك : لفظ تركي معناه الاب الامير ويعني المربي لابن السلطان ثم اصبح لقبا تشريفيا يمنح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة.

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٤، ص١٨ .

(٤) صدر الدين ابو الحسن : اخبار الدولة السلجوقية ص١٩٦، ١٩٧ .

- طغتكين واصله مملوك للملك تتش بن الب ارسلان، ارسله الى الشام، ثم صار لوالده دقاق ومنه انتقل الى طغتكين واستمر في عقبه ٥٢ سنة.(١)

- ثم هناك شاهات خوارزم (٤٧٠ ـ ٦٢٨هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٢٣١م).

- عماد الدين زنكي ، وهو من مشاهير الاتابكة في القرن الثاني عشر الميلادي، وهو مؤسس اتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومصر ، وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب الذي بدأ حياته مملوكا للسلطان ملكشاه،(٢) وتولى نور الدين بعد والده عماد الدين ، وعن طريقهما كان ظهور صلاح الدين الايوبي.(٣)

واقتبس الايوبيون عن السلاجقة الجاليش(٤) ، والجاليش عبارة عن خصلة من الشعر كانت ترفع في اعلى الراية امام الجيش ، ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش ، وطلائعه.

كما نقلوا ايضا الغاشية ، وهو سرج من اديم مخرزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، يحملها ركاب الدار بين يدى السلطان، وقد انتقلت هذه العادة الى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائه واستمرت في ايام سلاطين المماليك.(٥)

واستحدث الايوبيون كالسلاجقة نظام المدارس، وهي منشآت علمية سنية لمحاربة المذاهب الاسماعيلي الشيعي، وسار على هذا النهج صلاح الدين واستاذه نور الدين محمود زنكي من قبل.

---

(١) صدر الدين ابو الحسن : اخبار الدولة السلجوقية ،ص١٩٦، ١٩٧.

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، حـ١، ص ٢٤ ـ ٢٧.

(٣) انظر كتابنا : تاريخ المشرق الاسلامي من القرن الخامس حتى العاشر الهجري.

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ، حـ٢، ص٧٧(يقول ابو شامة في موقعه حطين سنة ٥٨٣هـ تقدمت الجاليشية تحرق بنيران النصال اهل النار.).

(٥) احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الاولى.

كما اكثر الايوبيون من المماليك الاتراك واستخدموهم في الجيش، وتجدر الاشارة ان الجيش الذى قاده اسد الدين شيركوه الى مصر كان معظمه يتكون من المماليك والامراء النورية.(١)

وقد سمي مماليك صلاح الدين الايوبي ، بالمماليك الصلاحية ، كما سمي مماليك اسد الدين شيركوه بالمماليك الاسدية ، وبعد وفاة صلاح الدين ناصر المماليك الصلاحية ابنه العزيز وابنه الملك المنصور وحاربت العادل(شقيق صلاح الدين) واطماعه ، وكان مقدم المماليك الصلاحية الامير فخر الدين جهاركس(٢) مملوك صلاح الدين بينما كان زعيم الاسدية كبيرهم سيف الدين يازكوج(٣) وقد تمكن العادل في مكر ودهاء ووعود خلابه استمالته فبقى مخلصا للملك العزيز في القاهرة(٤)، وظل الخلاف قائما حتى تغلب العادل ووحّد كلمة بني ايوب ، فخلع عليهم الملك العادل ورد اليهم اقطاعاتهم بمصر(٥) وآلت طائفة المماليك الصلاحية الى النسيان بعد ان اضطهدهم العادل واستولى على حصونهم(٦) وسمي المماليك بالعادلية نسبة الى العادل. وازداد عدد المماليك في عهد العادل بن يوسف (شقيق صلاح الدين)، ولمّا توفي خلفه ابناؤه الاشرف : موسى بن العادل ، والكامل ، ونسب عدد من المماليك لكل واحد منهم

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ، حـ١، ص ١٥٥ .

(٢) المقريزى : الخطط، حـ٢، ص٨٧،٨٨. ابن خلكان :- وفيات الاعيان ، حـ١، ص٢١٣ .

جهاركس كلمة فارسية معناها اربعة انفس بينما يرى ابو شامة في ذيل الروضتين ، ص٧٩ ان لفظ جهاركس معناه اشترى بأربعمائة دينار .

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ، حـ٢، ص ٢٢٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص١٢٨.

(٦) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر، حـ٢، ص ١٢٠ .

فعرف المماليك الاشرفية ، والمماليك الكاملية.

وكان التنافس دائما بين الاخوة والاعمام ، ويقوم المنتصر بالتنكيل بمماليك خصومه ، وبخاصة ان المماليك هم الذين كانوا يرجحون الكفة ويتحمسون للخصام والمنافسة. فلما توفي العادل(٦١٥هـ/ ١٢١٨م) كرهت العادلية تولية ابنه الكامل وارادت اخاه المعظم، وتمكن الكامل من السيطرة على السلطنة ،فقبض الكامل على كثير من الأمراء الذين ناصروا المعظم وصادر اموالهم . وانتقلت السلطة بعد وفاة الكامل (سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) الى ابنه الاصغر العادل الثاني في مصر . اما ابنه الاكبر الصالح ايوب فكان على ولايته بالجزيرة الفراتية.

وتمكن المماليك الكاملية بقيادة مقدمهم عز الدين ايبك من انتهاز فرصة خروج العادل الصغير نحو الكرك فقبضوا عليه في بلبيس وخلعوه سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠، ولم يتحرك لنصرته الا الاكراد الذين انهزموا على يد المماليك الكاملية والاشرفية من الاتراك.(٢).

اختلف المماليك الكاملية والاشرفية في من يتولى سلطنة مصر، فمال الاشرفية الى اسماعيل بن العادل صاحب دمشق بينما مال المماليك الكاملية الى الصالح بن ايوب ، وكانوا اقوى شوكة ، فلم يسع الاشرفية الا موافقتهم واستدعي الصالح ايوب اخيرا من الجزيرة الفراتية ليتولى السلطنة في مصر ، فدخلها سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م.(٣)

والى الملك الصالح يعود الفضل الاساسي في تكوين دولة المماليك الاولى، الذى قام بانشاء فرقة مميزة منهم معدة اعدادا عسكريا ومربين تربية اسلامية.(٤)

(١) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٣) ابن واصل مفروج الكروب، حـ٢، ص ٢٣٧. المقريزى : السلوك ،حـ١، ص ٢٩٦ .

(٤) انطون خليل ضوحط : الدولة المملوكية ، ص ٨.

المماليك ١٢٥٠ _ ١٥١٧

حكم المماليك مصر وبلاد الشام بعد الدولة الايوبية ، اي بعد وفاة ابن الملك الصالح نجم الدين ايوب المعروف باسم توران شاه من سنة ١٢٥٠م الى سنة ١٣٨٢م٠

وقد اتفق المؤرخون على تقسيم المماليك الى قسمين :ـ

١٠ المماليك البحرية : وهؤلاء جلبهم الملك الصالح نجم الدين ايوب الذى جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من بني ايوب ، فكان اكثر امراء عسكره منهم،[١] وبني لهم قلعة بجزيرة الروضة (في القاهرة)، وحشدهم بها، واختار منهم فرقة للاسطول سميت الفرقة البحرية او الفرقة الصالحية ، فسمي هؤلاء المماليك بالمماليك البحرية او المماليك الاتراك ، ويرى فيليب حتّي انهم سموا البحرية لانهم كانوا يقيمون بجزيرة الروضة التي يحيط بها النيل، وكان النيل يدعى عندهم بالبحر ٠[٢] بينما يرى العبادى انهم سموا بحرية لانهم جاؤا من وراء البحار[٣] وهؤلاء المماليك انحدروا من اصول مختلفة ولا يربطهم دم ولا عنصر وانما يربطهم شيء واحد انهم مماليك اشتروا بالمال ٠[٤]

٢٠ المماليك البرجية : وهم المماليك الذين لم يجلبهم الايوبيون ، وهم ينتسبون الى الشركس اشتراهم السلطان قلاوون ، وقد حكم هؤلاء من سنة ١٣٨٢ـ١٥١٧م

وتعود تسميتهم " المماليك البرجية " الى الاشرف خليل بن قلاوون الذى قسم المماليك السلطانية الى طوائف ، وأسكن طائفة المماليك الشركس في

---

(١) العيني : عقد الجمان، الحوادث سنة ٦٤٧،ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر،حـ٢ص١٨٨

(٢) فيليب حتّي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، حـ١، ص٢٦٨ ٠

(٣) احمد مختار العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص٩٩

(٤) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي ، حـ٥، ص ١٨١ ٠

ابراج القلعة وكان عددهم انذاك ٣٧٠٠ مملوك [(١)] وسلاطين المماليك الشراكسة كلهم من اصل شركسي ما عدا اثنين هما خشقدم وتمريغا فقد كانا من اصل يوناني. [(٢)]

السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب وتوران شاه والمماليك :-

تبوأ الصالح نجم الدين ايوب سلطنة مصر سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م بفضل المماليك الكاملية الذين كان يقودهم المملوك عز الدين ايبك فما كان منه الا ان اكثر من شراء المماليك الاتراك حفاظا على مركزه وخوفا من اجتماع الملوك الايوبيين ضده بزعامة عمه اسماعيل، وخشية من انقلاب المماليك الكاملية والاشرفية عليه اذا رجحت كفة اعدائه. [(٣)] فابتنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة، واسكنهم بها ، وزودها بكثير من الاسلحة وآلات الحرب وما يحتاجون من الغلال والمؤن .

وقد قام الملك الصالح بتربية مماليكه على الصورة التي درج عليها الايوبيون في تربية مماليكهم ما عدا بعض التفصيلات وتتلخص بما يلي :-
"فاذا قدم بالمملوك تاجره ، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه ، ويسلمه الى المختص برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاجه اليه من القرآن الكريم ، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن ، ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الاسلامية ، وملازمة الصلوات

---

(١) ابراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٨ - ٩

(٢) احمد شلبي: التاريخ الاسلامي ، جـ٥، ص ١٨١ .

(٣) ابن واصل : مفروج الكروب ، جـ٢، ص ٣٣٩، ٣٤٠ .

والاذكار، وصار الرسم اذا ذاك لا تجلب الا المماليك الصغار، فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، واقرأه فيه مقدمة ، فاذا صار الى سن البلوغ ، اخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه ، واذا ركبوا الى لعب الرمح او رمي النشاب ، لا يجسر جندى ولا احد ان يحدثهم او يدنو منهم ، عند ذلك ينقل الى الخدمة ، ويتنقل في اطوارها رتبة بعد رتبة الى ان يصير من الامراء ، فلا يبلغ هذه الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ، ومرن على ركوب الخيل ، وقد كان لهم خداما واكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصا شافيا ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ، ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فان عثر احد مؤدبيه الذى يعلمه القرآن او رأس النوبة الذى هو حاكم عليه ، على انه اقترف ذنبا او اخل برسم او ترك ادبا من آداب الدين او الدنيا قابله ع[illegible] ى ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يبالغون في اظهار الجميل ويردعون من جار او تعدى "[1]

وهكذا عمد السلطان الصالح ايوب على اعداد المماليك اعدادا عسكريا رفيع المستوى ، وعمل على تربيتهم تربية اسلامية صحيحة • فهو اول من رتب المماليك البحرية واول من سماهم بذلك الاسم نسبة الى بحر النيل الذى احاط بثكناتهم في جزيرة الروضة•[2]

والمعروف بأن السلطان الحاكم هو الذى اشترى هؤلاء المماليك واعتقهم ونتيجة لهذا وجدت رابطة قوية بين هؤلاء المماليك واستاذهم " السلطان"

---

(١) المقريزى : الخطط ، حـ٢، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ •

(٢) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص ٩٧ •

وقد كانت هذه الرابطة قوية عرفت بالخشداشية بين المماليك الذين اشتروا ودرسوا واعتقوا سوية.[1] وكان المملوك العتيق يعطى اقطاعا ليعيش منه ، وحصانا وملابس عسكرية فيصبح جنديا ويترقى فيما بعد حتى يصبح احيانا سلطانا ، ويعطي الى جانب ذلك مرتبا شهريا يسمى جاماكية ، ويمنح ايضا ما يسمى بالنفقة ، وهي مدفوعات غير منتظمة تدفع في مناسبات مختلفة قبيل الحملات.[2]

وفاة الملك الصالح ايوب وتولية ابنه توران :-

سادت فكرة في اوروبا مفادها ، انه ما دامت مصر قوية وشديدة البأس، فان مشاريع الصليبية في الشام فاشلة لا محالة ، فلا بد من القضاء على هذه القاعدة العسكرية الهامة ، لذلك تحركت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع الفرنسي لغزو مصر فوصلت القوة يوم الخميس الموافق ١٩ صفر سنة ٦٤٧هـ/ ٢ حزيران ١٢٤٩م مدينة دمياط ،[3] وكان السلطان الصالح قد امر بتحصين المدينة وتزويدها بالذخائر والاسلحة ، ووضع فيها حامية من عرب بني كنانة ، وجيشا بقيادة الامير فخر الدين بن يوسف ، وامره ان ينزل بساحلها الغربي ليحول دون نزول العدو الى الشاطئ فنزل هناك تجاه المدينة ، واصبح النيل بينه وبينها .

وعندما وصل الاسطول الفرنسي ، وقعت مناوشات ، انسحب بعدها الامير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة الى المعسكر السلطاني باشموم طناح، فسقطت المدينة في ايدى الغزاة.

---

(١) عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون ،ص١٥ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة

(٣) انظر التفاصيل في كتابنا : تاريخ المشرق الاسلامي ، ص١٩٥،١٩٦ .

استشاط السلطان الصالح ايوب غضبا لما وقع، فأمر بشنق الكنانيين الذين ارتدوا عن دمياط، وتغير نحو فخر الدين واشتد في تأنيبه، وكان السلطان مريضا وصائر لاجله.(١)

ارتد السلطان امام الاحداث الى الارتداد الى مدينة المنصورة ورابطت السفن الحربية في النيل تجاه المدينة، واخذت جموع العربان والجنود المتطوعة تفد الى القاعدة الجديدة، وكانت العمليات الحربية في تلك الاثناء مجرد غارات يشتها الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبيين، واستمر الحال على هذا المنوال ستة اشهر، وكان لويس التاسع ينتظر قدوم اخيه الثالث كونت دي بواتييه فلما وصل قرروا الهجوم على القاهرة.(٢)

وبينما يستعد الغزاة الفرنسيون لغزو القاهرة، توفي السلطان الصالح ايوب في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩م، بعد ان عهد لابنه توران شاه بالسلطنة في مصر، وقامت زوجته شجرة الدر بمهام الدولة، وكانت ذكية حازمة مخلصة، فأدارت شؤون الدولة بعد ان اخفت خبر موت زوجها حتى لا تحدث فتنة بين صفوف المجاهدين، وفي الوقت نفسه ارسلت الى ابن زوجها تحثه على القدوم من حصن كيفا الى مصر ليعتلي السلطنة بعد ابيه.

وعلم الفرنج بموت السلطان فقاموا بهجومهم حتى وصلوا المنصورة، وواصلوا هجومهم في فصائل صغيرة مبعثرة، وحاربهم الامير فخر الدين بن يوسف فاستشهد وهو يلم شمل جنوده، ثم جمعت فرقة المماليك البحرية بقيادة الامير بيبرس البندقداري، واستطاعوا ان يحوّلوا الهزيمة الى نصر،

---

(١) المقريزي : السلوك، حـ١، ص٣٣٦.

(٢) العبادي : قيام دولة المماليك الاولى ص ١٠٤.

واوسعهم المماليك قتلا حتى اهلكوهم وقتل من الفرنسيين حوالي ١٥٠٠ فارسا ٠

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الامير فارس الدين اقطاى الصالحي مجلس حرب وعرض عليهم لباس شقيق الملك لويس باعتباره لباس الملك الميت وقرروا مهاجمة الفرنسيين ، ووضع خطة عسكرية ، شملت النار الاغريقية فايقن الملك لويس بأنه لا يستطيع البقاء في المنصورة ٠

ولم تمض ايام حتى وصل توران شاه الذى استلم مقاليد الامور وقيادة الجيش في المنصورة ، فدبر خطة لاجبار الملك لويس على التسليم وذلك بقطع خط الرجعة على الفرنسيين بنقل سفن على الجمال ووضعها خلف الفرنسيين ، وبذلك تمكنت السفن المصرية من مهاجمة سفن الغزاة من الخلف والاستيلاء على ما فيها ٠

وحاول الفرنج الانسحاب لكنهم منوا بخسائر كثيرة واخيرا تمكن المسلمون من اسر الملك لويس التاسع ومن معه من الاشراف والفرسان ثم سجن بدار القاضي فخر الدين بن لقمان٠[1] وهكذا وصلت هذا الحملة الى نهايتها الفاشلة بفضل المماليك البحرية ولم يبق الا المفاوضات ٠[2]

ومن المؤسف حقا ، ان يتحول شعور المسلمين بزوال خطر الغزاة الفرنسيين الى بأس فيما بينهم بعد ان كان على عدوهم ، فقد تحول شعور توران شاه نحو المماليك الى توجس وخوف مالبث ان نما الى ارتياب شديد وكراهية ، مما جعل المماليك يعرضون عنه ، وليت الامر كذلك ، بل اخذ يحل مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه مكانهم ، واخذ يتهددهم و يتوعدهم ويسمي كل واحد منهم باسمه، ولذا نقموا عليه واضمروا له السوء٠[3]

---

(١) انظر ديوان ابن مطروح ص١٨١-١٨٢،قصيدته التي جاء فيها " دار ابن لقمان على حالها والقيدباقوالطواشي صبيح٠

(٢) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص١١٠ ٠

(٣) المقريزي:السلوك،حـ١،ص٣٥٨،٣٥٩،ابو المحاسن،النجوم الزاهرة،حـ٦،ص٣٧١ ٠

ولم يكتف توران شاه على مناوأة امراء الجيش وكبار رجال دولته ، بل تنكر لزوج ابيه شجرة الدر ، فبعث يتهددها ويطالبها بمال ابيه ، فكانت تجيبه بأنها صرفتها في شؤون الحرب وشؤون البلاد العامة.[1] واخذت تشكو امره الى المماليك البحرية الذين يكنون لها كل حب وتقدير باعتبارها من حريم استاذهم الذى اشتراهم،وبحكم الزمالة التي تربطها واياهم " الخشداشية".

وتطور حنق المماليك على السلطان الى اجماع على قتله والتخلص منه قبل ان يبطش بهم وقام بتنفيذ المؤامرة : فارس الدين اقطاي، وبيبرس البندقداري، فقام بضربه بيبرس فقطعت اصابعه ، فاحتمى بأعلى احد الإبراج، فأضرموا فيه النار صباح الاثنين ٢ ايار سنة ١٢٥٠/ ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ.[2]

ومما يدعو للاسف ان مقتل توران شاه وقع امام رجال الجيش ، فلم يحرك احد منهم ساكنا لانقاذه ، وبموته ينتهي عصر الدولة الايوبية في مصر، ويدخل عهد المماليك الذين بلغوا من القوة ما جعلهم يخلعون سلطانا ويقيمون آخر.

المماليك البحرية الصالحية :-

شغرت سدة الحكم بمقتل توران شاه، فاتفقت كلمة المماليك على تولية شجرة الدر امر السلطنة " ام خليل بن الصالح ايوب" تقديرا لزوجها السلطان الصالح ايوب ، وحرصا منهم على عدم الظهور بمظهر الخارج على الاسرة.

إن تولّي شجرة الدر السلطنة كان وليدة الظروف التي احاطت بمصر ، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها او خشداشيتها المماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب او رجال الدين او الخلافة العباسية.[3]

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، حـ٦، ص٣٧١.

(٢) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر،حـ٣،ص١٩٠ . ابن اياس :بدائع الزهور،حـ١،ص٨٨

(٣) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص١٢٠ .

وتعتبر شجرة الدر اول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة اسلامية ، فقد تولت السلطة حوالي ثلاثة اشهر .(١)

وقامت سياسة شجرة الدر على عدة امور : واول عمل اهتمت به تصفية الموقف مع الزنج وانهاء المفاوضات ، حيث قام الامير حسام الدين ابو علي الهذباني (٢) بانهاء ذلك بدفع الملك لويس التاسع ٨٠٠ الف دينارا ذهبيا والانسحاب من مصر، وتم ذلك في ٧ ايار سنة ١٢٥٠م (صفر ٦٤٨هـ).

ثم اخذت شجرة الدر تتقرب الى الخاصة والعامة وتعمل على ارضائهم بشتى الوسائل واغدقت على المماليك البحرية الاموال الطائلة والاقطاعات الواسعة والرتب العالية .

وعلى الرغم من ذلك فقد انف المصريون من قيام امرأة في السلطنة ، فقاموا بمظاهرات واظطرابات عديدة في القاهرة ، ويبدو ان رجال الدين كانوا وراء حركة المعارضة بزعامة الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذى كتب كتابا حول ما قد يبتلى به المسلمون بولاية امرأة.(٣)

وغضب حفيد صلاح الدين الملك الناصر يوسف صاحب حلب وزحف بجيوشه نحو دمشق فاستولى عليها وعلى غيرها ثم واصل زحفه نحو مصر وخاف المماليك على دولتهم الناشئة ، فكتبوا الى الخليفة العباسي المستعصم يطلبون منه تأييد سلطنة شجرة الدر لتدعيم سلطاتهم بسياج من التأييد الشرعي ، فكتب اليهم الخليفة : " ان كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا

---

(١) ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ،حـ٣،ص١٩٠، المقريزى: الخطط،حـ٢ ، ص٢٣٧ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ١، ص٨٩ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ،حـ١، ص ٣٤ . **ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر حـ٣، ص٢٣٤ .**

حتى نسير اليكم رجلا".[1]

وهنا اقتنع امراء المماليك بخطأ تصرفهم ، وقالوا " لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة ، ولا بد من اقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه"[2]

اشار قادة المماليك على شجرة الدر بأن تتزوج أحد الاتابكة ، ثم عرضوا السلطنة على عدد من الأمراء[3] ، وانجلى الموقف على تعيين عز الدين ايبك احد امراء البحرية الصالحية لمنصب الاتابكية ، وتزوجها ، وتنازلت له عن العرش في تموز سنة ١٢٥٠ بعد حكم دام (٨٠) يوما ، وتلقب باللقب السلطاني " الملك المعز" علما بأنه لم يكن اكبر امراء المماليك سنا او اقدمهم خدمة، او اقواهم نفوذا ومكانة ، فقد كان كل من فارس الدين اقطاى والظاهر بيبرس اكبر منه واقدم.

واجهت السلطان عز الدين ايبك مشاكل ومصاعب تتمثل في تهديدات الايوبيين والصليبيين في الخارج ، و ثورات الأعراب في الداخل، وخطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها :

١. اما تهديدات الايوبيين فقد تحولت الى خطر عندما زحف الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق نحو مصر وحاول ان يستعين بالملك لويس التاسع المقيم في عكا ، ولكن ايبك تمكن من تحييد الملك لويس عندما هدده بقتل الاسرى الصليبيين المقيمين في مصر .

وحاول ايبك امتصاص المعارضة الايوبية باقامة امير من ذرية بني ايوب الى جانبه وهو الطفل الاشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل ليكون

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١، ص٣٦٨، ٣٦٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٢، ص ٣٧٦.

(٣) المصدر نفسه ، ٣٧٣ .

شريكا له في السلطنة غير ان الخليفة لم تدخل على الايوبيين على الرغم من ذكر اسمه في الخطبة وذكر اسمه على السكة.[1]

التقى الايوبيون بالمماليك في معركة عامة عند بلدة العباسة (بين بلبيس والصالحية) في ٣ شباط سنة ١٢٥١/٥٥٩ انتصر فيها الملك الناصر الايوبي بادىء الامر، ولكن فرقة من مماليك و.هم العزيزية[2] انضموا الى اخوانهم المماليك ، فتحولت المعركة ، وولى الناصر ومن معه الى الشام منهزمين بعد ان فقدوا عددا كبيرا من القتلى والاسرى .[3]

وتدخل الخليفة العباسي المستعصم لانقاذ الموقف وازالة التفاهم ، فأرسل رسوله نجم الدين البادرائي[4] للمصالحة بينهما في نيسان سنة ١٢٥٣ (٦٦١هـ) على ان يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس، وتبقى بقية بلاد الشام في يد اصحابها من ابناء البيت الايوبي[5] . ولعل تدخل الخليفة العباسي يعود الى الخطر الجديد الذى يتهدد الدولة العباسية من الشرق وهو الخطر المغولي.

٢. ثورة الاعراب : وهي ثورة شعبية قام بها الأعراب في مصر سنة ٦٦١هـ/١٢٥٣م ولعل أحد جوانبها الدوافع الاقتصادية، فقد كان تعسف أمراء المماليك في تحديد اثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها هي التي دفعت بالاعراب الى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكي ، هذا الى جانب

(١) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ١، ص٩٠، المقريزي: الخطط، حـ٢، ص٢٣٧ .

(٢) العزيزية نسبة الى العزيز بن محمد والد الناصر يوسف وقد انتقلوا الى خدمته بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦م.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، حـ٢، ص٣٨٢، ٣٨٣، المقريزي: السلوك، حـ١، ص٣٧٣-٣٧٥. ابو المحاسن : النجوم الزاهرة، حـ٧، ص٨ .

(٤) نسبة الى قرية بادران بأصبهان.

(٥) المقريزي: السلوك، حـ١، ص٣٨٥، ٣٨٦، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، حـ٧، ص١٠ .

الاهداف السياسية التي تدعو الى الغاء حكم المماليك واعادته الى العرب الاحرار اصحاب السيادة القديمة.

ويبدو ان حركة الاستياء والتذمر لم تكن مقتصرة على العناصر العربية بل صارت حركة شعبية في عهد أيبك ، وكانوا يسمعونه ما يكره في وجهه اذا ركب في الطرقات [1] وتزعم هذه الحركة شريف علوي : حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة واتصل بالملك الناصر يوسف الايوبي يطلب المساعدة .[2]

وارسل السلطان ايبك للقضاء على الشورة خصمه ومنافسة اقطاي وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية [3] .

تمكن اقطاي بخمسة آلاف فارس من المماليك من التغلب على الحركة بفضل تفوق المماليك الحربي ومهارة اقطاي ، وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس سنة ١٢٥٣ م / ٦٥١هـ[4]

وهكذا تغلب ايبك على احد العناصر المهددة بقيام دولة المماليك واستقرارها .

٣. خطر زملائه من المماليك البحرية : كان ايبك يتوجس خيفة من زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين اقطاى ، فأخذ يقوم باحتياطيات تقلل من خطر أقطاى وزملائه .

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٧، ص ١٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٣٨٦ .

(٣) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص١٣٢ .

(٤) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٣٨٧ .

اخذ ايبك يعمل على تقوية نفسه ، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة له " الملك المعز " ، وعين مملوكه قطز المعزى نائبا للسلطنة بمصر، ثم اخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعزل الملك الايوبي الطفل موسى شريكه الإسمي في الحكم وانفرد بالسلطنة.[1]

اما اقطاى فقد كان يشعر بأنه قد وصل الى قمة المجد وبخاصة بعد تغلبه على ثورة العرب ، واصبح يخشى ايبك على الرغم من غروره ، فكان لا يظهر الا وحوله حرس عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج ، وكان في حماسه يغمز فية ولا يسميه الا ايبكا ، كما اخذ يرنو علانية نحو السلطنة كما ان زملاءه يسعون في تحقيق بغيته فلقبوه بينهم بالملك الجواد، وعملوا على تزويجه من احدى اميرات البيت الايوبي ابنة صاحب حماة[2]، الملك المظفر تقي الدين محمود. ثم اخذ خشداشية البحرية يتآمرون على قتل ايبك ليخلو الجو لاقطاى.[3]

وطلب اقطاى من ايبك ان يأذن له في الاقامة مع عروسه بقلعة المقطم لكونها من بنات الملك ، ونفذ صبر ايبك في نوايا اقطاى فصمم على قتله، فدعاه الى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الامور ، فتوجه اقطاى في عدة من مماليكه ، وكان كلما دخل بابا اغلق خلفه وحتى وصل الى قاعة العواميد او القاعة الكبرى فاغلق الباب ومنع مماليكه من اللحاق به ، فانقض عليه المتآمرون ومنهم قطز المعزى وقتلوه بسيوفهم يوم الاربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ (١٢٥٤م).[4]

---

(١) المقريزى : السلوك ،حـ١،ص٣٨١،٣٨٤ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ،حـ٧، ص١١ .

(٣) المقريزى : السلوك ،حـ١، ص٣٨٦ .

(٤) المقريزى : المصدر نفسه ، ص٣٩٠ . ابن اياس: بدائع الزهور،حـ١،ص٩١ .

أفزع الحادث كبار المماليك (بيبرس ، وقلاوون الالفي)وخشوا ان تدور الدائرة عليهم ، فهرب من استطاع الهرب الى ملوك البيت الايوبي في الشام.

لقد كان مقتل اقطاي قد شطر المماليك البحرية الى حزبين وهما البحرية والمعزية ، مما عرض دولة المماليك لاشد الاخطار، فقد اخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الايوبي على غزو مصر، وعمد ايبك الى مصادرة اموالهم وشتت شمل من والاهم.[1]

واستعد الناصر يوسف (صاحب دمشق) لغزو مصر بعد ان صارت المماليك الى جانبه ، لكن الخليفة المستعصم اصلحهما بواسطة نجم الدين البادراني كما مر الا انالمماليك البحرية رحلوا الى المغيث عمر ملك الكرك وهو الملك الايوبي الطامح في مصر .[2] وسعى ايبك الى المستنصر يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والالوية اسوة بمن تقدمه من ملوك مصر .[3]

وكانت بداية الخاتمة لايبك عندما اخذ يضيق الخناق على زوجته شجرة الدر، وابعدها تدريجيا عن السلطة حتى اصبحت لا قيمة لها وهي صاحبة الكلمة الاولى ، والتي ادارت شؤون الدولة في المرحلة الاخيرة لحياة زوجها الملك الصالح ، وكانت لها ارتباطات ممتازة مع اخوانها المماليك البحرية ، لذلك اخذت تبدي استياءها بادىء الامر، وتحول الاستياء الى الإعداد الى مؤامرة بعد ان تزوج ايبك من ابنة صاحب الموصل[4] بدر الدين لؤلؤ الاتابكي.

وخاف ايبك على حياته فترك القلعة وقام بمناظر اللوق، وصمم على

---

(1) المقريزي : المصدر نفسه ،ص٣٩٢،ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، حـ٧،ص١٢،١٣.

(2) المقريزي : المصدر نفسه ، ص٣٩٦، ٣٩٨ .

(3) المقريزي : المقريزي : السلوك ، حـ١، ص ٣٩٨ .

(4) ابن واصل: مفرج الكروب ، حـ١، ص١٦٦،١٦٨، ١٨٥، ٢١٤، حـ٢، ص٢٨٩، ٣٨٧ .

قتل زوجته بعد ان اكتشف ارسالها احد المماليك العزيزية الى الملك الناصر يوسف تخبره فيها انها عزمت على قتل ايبك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر، لكن الناصر اعرض عنها.(1)

وهكذا اخذ الزوجان يتسابقان في نسج مؤامرة القتل، وانتهى السباق بانتصار شجرة الدر، اذ ارسلت له رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور اليها بالقلعة، حيث اعدت له خمسة من الغلمان الاشداء لاغتياله منهم: محسن الجوجرى، ونصر العزيزي، وسنجر، وقام هؤلاء بقتله في الحمام في نيسان سنة ١٢٥٧م، (٦٥٥هـ).(٢)

وحاولت شجرة الدر ان تتفادى عواقب هذه الجريمة، فعرضت السلطة على عدة امراء علّ احدهم يقبض على زمام الموقف وتختفي خلفه في الحكم، فعرضت السلطنة على جمال الدين بن ايدغدى العزيزى وعز الدين ايبك الحلبي، ولكنهما لم يجسرا على ذلك.(٣)

وفي اليوم التالي ذاع الخبر بقتل السلطان ايبك، فأسرع المماليك الى القلعة، وبعد التحقيق مع الخدم والحريم اعترفوا بحقيقة ما حدث، وحاول المماليك المعزية قتل شجرة الدر ولكن المماليك الصالحية حالوا دون قتلها مؤقتا لولا حقد امرأة ايبك وام ولده علي التي اخذت تتحرق شوقا للانتقام، فاخذت هي وابنها يلحان في تحريض المعزية على قتلها الى ان ضعفت معارضة المماليك الصالحية في النهاية، وحملت شجرة الدر اليها فأمرت جواريها بقتلها.(٤)

---

(1) المقريزى: السلوك، حـ١، ص٤٠١، ٤٠٢.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، حـ٦، ص ٣٧٥.

(٣) ابو المحاسن: المصدر نفسه والصفحة.

(٤) المقريزي: السلوك، حـ١، ص٤٠٤.

وتعصب المماليك المعزية لابن سيدهم علي واقاموه سلطانا في ربيع الاول سنة ٦٥٥هـ(١٢٥٧م) ولقبوه بالملك المنصور علي ، وهو لم يتجاوز خمسة عشر سنة ،[١] بينما اتفق المماليك الصالحية على سلطنة اتابك العسكر الامير علم الدين سنجر الحلبي[٢] ولكن سرعان ما القي عليه القبض وسجن في القلعة ، فهرب انصاره ، وقبض على عدد كبير منهم.[٣]

وحاولت الطوائف المملوكية من بحرية وغيرها الكتابة الى صاحب الكرك (المغيث بن عمر) للاستيلاء على مصر، فسعى بمعونتهم مرتين سنة ١٢٥٧/ ٦٥٥،[٤] ، ١٢٥٨ / ٦٥٦[٥] ولكن صاحب الكرك ارتد خائبا بفضل شجاعة نائب السلطنة الامير سيف الدين قطز المعزى.

وهكذا واجهت الدولة المملوكية في عهد الملك المنصور علي وسلطانها الصبي المؤامرات الخارجية والداخلية ، وواجهت ادهى من كل ذلك الخطر المغولي .

المغول والماليك

الغزو المغولي :-

لم يتعرض الاسلام لاوقات عصيبة كالتي تعرض لها في القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على يد المغول ، فقد دمرت الجيوش المغولية مدن الاسلام ، وقوضت معالم المدينة والحضارة الاسلامية ، وما ذلك الا لانه لم

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٦، ص٣٧٦ .

(٢) ابو المحاسن : المصدر نفسه والصفحة.

(٣) ابو المحاسن : المصدر نفسه ، حـ٧، ص٤٢

(٤) ابو المحاسن المصدر نفسه ص٤٤، المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٢٠٦ .

(٥) ابو المحاسن : المصدر نفسه ص٤٥، المقريزى : المقريزى : السلوك حـ١، ص٤١١.

يوجد في آسيا الاسلامية قوة تستطيع مواجهة الغزو العنيف الذى بدأه جنكيز خان واولاده واحفاده ، فالخلافة العباسية كانت ضعيفة وكذلك دولة السلاجقة، وكانت دولة المماليك في بدايتها .

استولى المغول بقيادة هؤلاء في شباط سنة ١٢٥٨/٦٥٦هـ على بغداد قلعة الاسلام ، واكملوا فيها معاول التخريب والسيف والنار سبعة ايام ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وافراد اسرته واكابر رجال دولته واهتز العالم الاسلامي لسقوط مركز الزعامة الروحية للمسلمين .

ولعل انتصارات المغول تعود الى عدة اسباب :-

١. تفوقهم في الاسلحة من حيث النوع والكم ، فسيوفهم مدببة ، ويلبسون الدروع ، حتى خيولهم لها دروع جلدية
٢. خطتهم العسكرية التي كانت تقوم على سرعة الاطباق على العدو .
٣. اعتمادهم على الحرب الخاطفة ، وما تتركه هذه من آثار نفسية على المغلوبين.
٤. اعتماد المغول على جيش المغول الاصليين ، ومنهم الفرسان ، المهندسين والاخصائيين في قذف المجانيق وآلات الحصار .
٥. الاستبسال في القتال حتى كان يندر ان يهرب واحد من صفوفهم او يترك زميله اسيرا .
٦. مشاركة المرأة المغولية في القتال كالرجال.

ومن هنا نجد ان الامة المغولية جميعها قد عملت في صفوف الجيش المغولي لتحقيق النصر .(١)

---

(١) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص١٤٧ .

ولعل سقوط بغداد في ايدى التتار قد ادى الى نتائج عديدة في الحياة الاسلامية اهمها ·

١· ضياع الوحدة الاسلامية للمسلمين حتى اليوم ، حتى اصبحت من الامور التي يستحيل تحقيقها ·

٢· منيت الثقافة الاسلامية بخسارة كبيرة ، فقد اتلفت آلاف الكتب القيمة والمخطوطات النادرة·

٣· قتل عدد كبير من العلماء والادباء الفقهاء في بغداد ، وتشتت شمل من بقي منهم في مختلف العالم الاسلامي وبخاصة مصر ·

٤· اصبحت مصر (القاهرة) مركز الزعامة الفكرية الاسلامية بسبب جذبها عدد كبير منهم·

٥· انتقال عدد كبير من اصحاب الحرف والمهن والصناعات من الشرق والعراق الى مصر، وهذا جلب الاساليب الفنية المتعددة لها ·

٦· تغيير نظرة سلاطين المماليك في مصر سياستهم نحو الخلافة ، مما جعلهم يفكرون في احيائها من جديد ·

٧· ضرورة توحيد الجهود في مصر والشام لمواجهة الغزو المغولي الذى لن يرحم احدا ·

غزو المغول لبلاد الشام:-

في ايلول سنة ١٢٥٩ (٦٥٧هـ) غزا هولاكو الشام بجيش قوى لذلك طلب الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق من المماليك في مصر معونة حربية تسمح له بالوقوف في وجه المغيرين ،(١) وكان سلطان مصر في ذلك الوقت

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١، ص٤١٦، ٤١٧ ·

الملك المظفر سيف الدين قطز الذى اعتلى العرش بعد ان خلع علي ، وكان قطز من الخوارزمية [١] الناقمين على التتر والمعارضين لجرائمهم.

وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر يوسف ، فان خطورة الموقف جعلت السلطان قطز يتناسى ما بينهما ويقبل بارسال نجدات عسكرية اليه، بل اكثر من ذلك ، فقد كتب اليه بأنه يقبل كل عروضه عن طيب خاطر ، ويعتبر الناصر بصفته من سليل صلاح الدين ملكا على جميع الممالك التي خضعت لسلطان الايوبيين ومنها مصر، وهو يتعهد له بتقديم السلطنة العليا اذا اراد القدوم الى القاهرة ، ويعرض عليه ان يرسل له جيشه الى دمشق ليجنبه عناء القدوم بنفسه الى القاهرة اذا كان يرتاب في صدق نواياه. [٢]

تابع المغول سيرهم ، فاستولوا على حلب (في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٢٦٠ صفر ٦٥٨هـ) بعد سبعة ايام من السفك والتخريب ، ثم سقطت ميافارقين بعد عدة شهور وبعد ان دافعت حاميتها دفاعا مستميتا لم يشهد المغول مثله، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الايوبي ، وامام هذا الخطر الداهم.

انسحب الناصر ومماليك الناصرية والعزيزية من البحرية وعلى رأسهم بيبرس وخيّم على برزه [٣] وهي على مسافة من دمشق شمالا ، ثم انسحب الى غزة بعد ان ترك دمشق لوزيره زين الدين الحافظي [٤] الذى اسلمها للمغول

(١) انظر : الكتبي : فوات الوفيات ، حـ٢،ص١٣٢،١٣٣، كان قطز شابا اشقر، كبير اللحية، واسمه محمود بن مودود، وانه ينتسب الى بيت الملك في خوارزم، جلال الدين خوارزمشاه، وان المغول قضوا على اسرته،وكان قطز من السبايا الذين بيعوا في دمشق.

(٢) عبد الله بن ايبك: كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٨، ق١، ص٣٥ .

(٣) قريبة بالغوطة

(٤) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص ٤٢٣ .

في آذار سنة ١٢٦٠ (ربيع الاول سنة ٦٥٨هـ) بينما قاومت قلعتها الحصينة دون جدوى فاستسلمت الحامية في ٣ حزيران من نفس السنة ، واقتدت انطاكية بدمشق في التسليم ولكنها لم تسلم من التخريب كدمشق.

اما الناصر يوسف فما كاد يصل الى غزة على رأس جيشه حتى اخذ قطز يغرى وحدات جيشه ومماليكه ويجتذبها الى ناحيته،[1] ونجحت اغراءات قطز حتى الفى الناصر نفسه وحيدا في غزة، فخرج منها في بعض اقاربه وحاشيته وهو لا يدرى ماذا يفعل ، واخيرا القت ثلة من المغول القبض عليه عند بركة زيزاء وحملته الى هولاكو الذى لقيه ووعده بأن تكون له السيادة الفعلية في تلك البلاد .

ورأى هولاكو ان تتابع جيوشه نحو الغرب ، فأخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس ثم التوجه للديار المصرية ، فأرسل رسله الى سلطان مصر بكتاب كله تهديد ووعيد وانذار بالويل والثبور ان هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول.[2]

عقد السلطان قطز مجلسا ضم كبار امراء المماليك ، وكان كثير من المماليك البحرية قد عاد ثانية لمصر ، وقد نسوا مخاوفهم ، ورحب بمقدمهم قطز، ومنحهم الاقطاعات واكرمهم ، فاتحدت كلمتهم وصاروا كتلة واحدة امام العدو الخارجي وهو المغول وابرزهم بيبرس البندقدارى[3] الذي استقبله قطز مرحبا وانزله بدار الوزارة [4] واقطعه قليوب[5].

(١) ابو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٢٠٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤٢٧ - ٤٣٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤١٩ .

(٤) المقريزى : الخطط ، حـ٢، ص٣٠١، ٣٠٢ .

(٥) الكتبي : وفيات الاعيان ، حـ١،ص٨٦،المقريزى:السلوك،حـ١،ص٤١٩،٤٢٠ .

وكان نتيجة الاجتماع ان قرر المجتمعون بقيادة قطز الجهاد ضد التتار،[1] وقبض على رسل المغول واعدمهم وعلق رؤوسهم على باب زويلة ونودى في القاهرة وسائر الاقاليم بالجهاد، فأخذ يستعد له ، فحشد الجيوش ، وجمع الاموال ، واشترط رجال الدين على قطز تقديم ما عنده وما عند الامراء من الحلى وضربها سكة ونقدا وتفريقها على رجال الجيش ، فان لم تقم بكفايتهم بفرض ضرائب جديدة على الرعية ، ويفترض التجار، وتم احضار الاموال ووضعت بين يدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام.[2] ثم اخذ قطز يعمل على اثارة نخوة الامراء والقادة والجنود والمواطنين من اجل الدفاع عن ديار العروبة والاسلام : " يا امراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون اموال بيت المال وانتم للغزاة كارهون ، وانا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مضطلع عليه وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين[3]

تحالف جميع المماليك من اجل قتال العدو المغولي لصده عن ديار الاسلام والمسلمين.

وخرج قطز من مصر على رأس الجيوش الاسلامية في (رمضان سنة ٦٥٨ هـ/ آب سنة ١٢٦٠م) وجعل في مقدمة جيشه بيبرس الذى التقى بطلائع المغول في غزة ، فالحق بهم هزيمة ، كانت الاولى في تاريخ المغول علما انها لم تكن حاسمة[4]، وتقدم قطز عن طريق الساحل معرجا اولا نحو عكا التي كانت مع الفرنج ليتبين نياتهم ، وتقدم بيبرس فالتقى بالقائد المغولى كتبغا في بعلبك

---

(١) انظر كتابنا : تاريخ المشرق الاسلامي ، ص٩٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٢، ص ٣٩٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤٢٩ .

(٤) العبادى : قيام دولة المماليك الاولى ، ص١٦١ .

حيث انزل بيبرس بالمغول هزيمة منكرة ، وطاردهم حتى نهر العاصي، وقد كان لهذه المعركة أثر كبير في الروح المعنوية للمسلمين ، فقد ارتفعت روحهم بذلك ، وكسرت حاجز الخوف عندهم ، واكدت لهم ان النصر من عند الله يمنحه لعباده المخلصين ٠

اما بالنسبة للمغول ، فقد انسحب هولاكو لبلاده بسبب موت اخيه الخان الاعظم " منجوقان"، فأسند قيادة جيوشه البالغة حوالي ثلاثين الفا الى كتبغانوين ، ورحل مسرعا الى القورلتاي ، مجمع زعماء التتار - في العاصمة قرّة قورم٠

موقعه عين جالوت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م[1] (٢٥ رمضان)

لقد كانت مبادرة قطز لقتال المغول التتار ترجع الى ايمانه وعزمه على الجهاد، لما يعرفه من المصائب والفجائع التي الحقوها بالبلاد التي مروا بها، فقد ازهقوا الارواح وقضوا على الحرث والنسل ، فلم يكن امامه الا احد الخيارات الثلاث ، فاما المواجهة والجهاد، أو الصلح والاستسلام أو الجلاء عن ديار مصر، والاحتمال الثاني سيؤدى به الى الذل والهوان ، والثالث فأين يتجه بعد الجلاء عن مصر، لذلك لم يجد امامه سوى الخيار الاول ، وهو القتال والدفاع عن الاسلام والمسلمين٠

تقدم المظفر قطز نحو بيسان ، فوقف بقواته في عين جالوت الواقعة غربي بيسان حيث كان التتار ٠

أمر السلطان قطز بجمع الامراء وقادة الجيش ، وخصهم على القتال

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية /عين جالوت ٠

ورغبهم فيه ، وذكرهم بما لحق بلاد الاسلام من القتل والدمارا واخذ يدعو الله لنصرة الاسلام ، وخوف قادته وجنوده من عقاب الله ان هم ولوا الادبار امام الاعداء ، وتأثر القادة والجنود، " فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد"[1] .

وفي صباح الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨ الموافق ٣ ايلول سنة ١٢٦٠[2] التقى الجمعان المغولي والاسلامي في معركة عامة في عين جالوت .

تقدم بيبرس البندقداري بفرقة الكشافة لاستطلاع اخبار العدو ومناوشته حتى يصل السلطان قطز ببقية الجيش ، واخذ بيبرس يلتقي بطلائع التتار ويناوشهم ، ثم ينسحب امامهم حتى اوقعهم في الفخ الذى نصبه مع السلطان، فاحاط الجيش الاسلامي بهم ، واشتد القتال حتى انهزم العدو، وكثر تكبير المسلمين ودعاؤهم ، ودقت طبول الحرب واشتد القتال ، وتقاتل الطرفان قتالا شديدا لم ير مثله حتى قتل من الطرفين جماعة كثيرة.[3]

والقى السلطان قطز خوذته من رأسه الى الارض وصاح بأعلى صوته "واسلاماه" ، فاشتدت عزائم المجاهدين ، وحملوا على العدو حملة صادقة، فاشتد القتال مما حدا بكتبغا ان يقاتل بنفسه .

واعطي كمين بيبرس نتيجته ، فقد وقع المغول فيه ، فانقضت عليهم القوات الاسلامية ، واستمرت في جهادها من الفجر حتى منتصف النهار، وتعززت المقاومة على المغول، فلحقت بهم الهزيمة آخر الامر.[4]

(١) دائرة المعارف الاسلامية / عين جالوت .

(٢) حبذا مشاهدة فيلم واسلاماه.

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٧، ص٧٩.

(٤) رشيد الدين : جامع التواريخ، حـ١، ص٣١٤ .

وحلت الهزيمة بالمغول ، فولى من نجا منهم الادبار ، وقتل قائدهم كتبغا بيد الامير جمال الدين اقوش الشمسي ، وانهزم التتار فارين نحو الجبل المجاور ، فتبعهم جنود المسلمين ، فقتل معظمهم واسر آخرون.(١)

تابع الجنود المسلمون المغول المهزومين حتى حمص ، فتخطفهم المسلمون وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ثم لاحق الجنود المسلمين فلولهم حتى الفرات.(٢)

ويعتبر انتصار المسلمين في عين جالوت انتصارا للحضارة ، وانقاذا للمدينة من هؤلاء الهمج الذين لو لم تدر عليهم الدائرة لامتد ضررهم الى العالم والانسانية .(٣)

وقد كان لهذا النصر ابلغ الاثر على نفوس المسلمين ، مما حدا بالظاهر بيبرس بعدما آلت اليه السلطنة اقامة نصب تذكارى تخليدا لذكرى انتصار المسلمين على التتار وسماه " مشهد النصر "(٤)

ولعل من اهم نتائج عين جالوت(٥) :-

١. انها ثبتت دعائم دولة المماليك في مصر والشام ، وانهت بقايا الملوك الايوبيين.

٢. انقذت بلاد الشام ومصر من الاحتلال المغولي ، وتحولت القوة الاسلامية من الدفاع الى الهجوم ، فتم سحق قوى العدو ومطاردته فتحطمت قوتهم بعد هذه الهزيمة .

---

(١) المقريزى : السلوك ،حـ١،ق١،ص٤٣٠،٤٣١، ابن كثير : البداية والنهاية،حـ٣،ص١٢٢،١٢٣ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٧، ص٧٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ص٤٣١. (٣) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة،ص١٩٨.

(٤) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص٣٣.

(٥) فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص٥٥، ٥٦.

٣٠ عملت موقعة عين جالوت بزوال ما تبقى من الامارات الصليبية ٠[1]

٤٠ حفظت تراث الحضارة العربية الاسلامية في مصر وبيت المقدس من الضياع ٠

تقدم المظفر قطز بعد الانتصار حتى وصل دمشق ،فأعاد الطمأنينة للبلاد والعباد، ورتب امور بلاد الشام ، واقر الولاة والنواب ، فأقر الامير علم الدين سنجر كنائب له في دمشق ٠

وهكذا عادت بلاد الشام الى حكم الاسلام ، ودخلت تحت حكم دولة المماليك منذ ذلك الحين ، ويعد المظفر قطز هو اول من ملك بلاد الشام ومصر ٠

غادر المظفر قطز دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال عام ٦٥٨هـ/ تشرين الاول سنة ١٢٦٠ متوجها نحو مصر، واثناء محاولته لصيد ارنب عند الحدود المصرية تم اغتياله وقتله فتولى السلطة الظاهر بيبرس واصبح السلطان الجديد في القاهرة في ١٩ ذي القعدة ٦٥٨هـ/٢٦ تشرين الاول سنة ١٢٦٠ ولعل ذلك يعود الى العداء القديم بين المماليك المعزية والبحرية الصالحية ٠[2]

دور الظاهر بيبرس في ترسيخ دعائم الدولة المملوكية :-

كان بيبرس قوى الشكيمة ، شديد العزم ، شجاعا ضربت الامثال ببطولته وشهامته ، كما كان اداريا حازما ، وقد وضع لدولة المماليك الاولى عوامل البقاء عندما صار حاكما وسلطانا لمصر (٦٥٨- ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ - ١٢٧٧م)٠

أ٠ القضاء على الثورات الداخلية :-

أ ٠ ثورة دمشق ، وقد قام بها علم الدين ، سنجر الحلبي الذى عينه قطز اميرا على دمشق، فقام بثورته احتجاجا على مقتل قطز في ذي الحجة

---

(١) الباز العريني : المغول ، ص٢٦٤ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ،حـ١، ص٤٣٧، ابن اياس : بدائع الزهور ،حـ١ ،ص٩٩، ١٠٠

سنة ٦٥٨هـ/ تشرين الثاني سنة ١٢٦٠، وحاول ان يستعين بسلاطين حمص وحماة فرفضوا اجابة طلبه٠

جرد بيبرس جيشا للقضاء على ثورة دمشق ، فعاد الجيش بنائب دمشق " علم الدين" (١٦ صفر سنة ٦٥٦هـ/ كانون الاول سنة ١٢٦١، واعتقل بقلعة الجبل"[1]

ب٠ ثورة القاهرة بزعامة رجل شيعي يعرف بالكوراني ، اظهر الزهد الورع وسكن جبل المقطم ، ولما كثر اتباعه اخذ يدعو لقلب نظام الحكم المملوكي " السني " بحكم شيعي ، ثم تمخضت هذه الدعوة الى ثورة (اواخر سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) ، شق الثوار شوارع القاهرة ليلا، واقتحموا اصطبلات الجنود واخذوا الخيول٠

ارسل بيبرس الجند والقوا القبض على جميع زعمائهم ، وصلبهم على باب زويلة٠[2]

٢٠ أحياء الخلافة العباسية :ـ

ان السلطان بيبرس اول من فكر في احياء الخلافة العباسية بعد عثرتها الدامية التي حصلت على يد هولاكو وجنوده٠

فبعد واقعة عين جالوت فكر قطز في اعادة الخلافة ، لكنه مات قبل ان ينفذها ، فقام بيبرس باخراج المشروع الى حيز التنفيذ٠ فأرسل في طلب ابو القاسم احمد، وكان لا يزال بالعراق ، فقدم الى القاهرة ، حيث تلقاه بيبرس في رجب سنة ٦٥٩/ حزيران ١٢٦١م وبالغ السلطان باحترام الخليفة واكرامه وانزله بقلعة الجبل ، ثم قام بحفلة البيعة ، فاستدعى جماعة من العربان والبغادوة فشهدوا امام جمع من العلماء ان الامير ابا القاسم احمد بن الخليفة الظاهر

---

(١) المقريزى : السلوك ،حـ١، ص٤٣٨،٤٣٩،ابو الفداء: المختصر، حـ٣، ص٢١٠ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤٤٠ ٠

امير المؤمنين ،فبايع السلطان ابا القاسم بالخلافة وبقية العلماء وعلى رأسهم عز الدين بن عبد السلام[1] وجميع من حضر المجلس ولقب الخليفة الجديد المستنصر بالله (١٢٢٦ - ١٢٤٢) ٠ ثم كتب السلطان بيبرس الى الملوك والنواب بسائر الممالك بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله ، وان يدعى له على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده وان تنقش السكة باسمه٠

وقد ابدى بيبرس بعمله هذا خدمة كبيرة له وللمماليك حيث دعم السلطة بالمظهر الديني التي قام بها ، فقوى بذلك الدولة المملوكية في ارجاء العالم الاسلامي٠

وبقيت الخلافة العباسية في القاهرة الى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ حيث انتقلت الى اسطنبول ٠

واقتضى هذا من بيبرس القيام باصلاحات بالحرم النبوى الشريف وارسال الكسوة الى الكعبة[٢] ، كما ارسل الصدقات والزيت والتمور[٣] والطيب، واخيرا اداء فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م فأظهر خشوعا وكرما ٠

كما ارسل بيبرس الصناع المهرة للعناية بعمارة مسجد قبة الصخرة بالقدس ومسجد ابراهيم الخليل عليه السلام[٤] ، سنة ١٢٦١، وهذا الى جانب بناء المساجد وتأسيس المدارس٠

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ص٤٤ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٥٠٢، ٥٤٤ ٠

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ١ ، ص٥١٢ ٠

(٤) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص ٤٤٥، ٤٤٦، ٥٠٢ ٠

٣٠ التخلص من العناصر الايوبية المناوئة :ـ

كان الملك المغيث عمر ـ بن العادل بن الكامل ، صاحب حصن الكرك يناوىء سلاطين المماليك منذ عهد عز الدين ايبك اعتقادا منه انه احق منهم في سلطان مصر والشام٠

فلما جاء الظاهر بيبرس الى سلطنة مصر عزم على القضاء عليه وازالته٠(١)

اعد بيبرس حملة كافية للقضاء عليه لولا ان المغيث بعث برسالة الى الخليفة الحاكم بأمر الله يسأله الشفاعة فتشفع له عند بيبرس٠

وعلم بيبرس ان المغيث يراسل هولاكو، ولعلها اختلاق للقضاء عليه، فعمد بيبرس الى السياسة والمداورة ، فأرسل الى عمر رسالة يطلب اليه الحضور الي معسكره بفلسطين ، واكد له بالايمان الا يمسه ، فلما حضر اليه قابله بيبرس واكرم وفادته في جمادى الاولى سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣ ثم القى القبض عليه واعتقله، ثم ارسله الى القاهرة حيث قتل في نيسان سنة ١٢٦٣(٣) واستولى بيبرس على الكرك ٠

٠ عقد المحالفات مع الدول المحيطة :ـ

أ٠ حالف بيبرس ميخائيل الثامن باليولوج ، امبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢/ ٦٦٠ هـ وقد ارسل وفدا برئاسة الامير فارس الدين اقوش المسعودي ، وهناك احتفى بهم الامبراطور واطلع الامير اقوش على المسجد الذى جدد بناءه في عاصمته (٤) فقام بيبرس بتأثيث المسجد وتجهيزه بالسجاد

---

(١) ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ، حـ٣، ص٢٦٦ ٠

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٢، ص٤٠٠ ٠

(٣) ابو الفداء : المختصر ، حـ٣، ص٢٢٦ ٠

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٢، ص٤٠٢ ٠

والقناديل والمباخر والمسك والعنبر [1] .

ب. حالف بيبرس ملك صقلية ونابلي منفرد بن فردريك الثاني وتبادلا الهدايا سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١ .

حـ. حالف بيبرس بركة خان ، وهو خان القبيلة الذهبية او مغول القبشاق ، وهو اول من اعتنق الاسلام من اولاد جنكيز خان ، وتبادل مع هذه الدولة الهدايا ، وتزوج ابنته ، وامر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة. [2]

د. حالف بيبرس سلطان السلاجقة الروم عمر الدين بن كيكاوى بن كيخسرو ووعده بالمساعدة ضد اخيه قليج ارسلان وضد هولاكو واطماعه في آسيا .

٥. تحصين الثغور :-

رأى السلطان بيبرس في تحصين الثغور احدى دعامات القوة والبقاء وقد رأى في ذلك اسلوبين :-

أ. تجنيد العشائر المتاخمة للحدود ليقوموا بمهمتهم خير قيام امام اى عدد خارجي ، فخلع عليهم الاموال ، والهدايا [3] كما هو الحال مع عرب خفاجة والعشائر المقيمة على الحدود الفراتية ، وكذلك احراق الاعشاب حتى لا يجد المغول عشبا لحيواناتهم اذا هاجموا البلاد [4]

ب. اعمار القلاع والحصون والابراج والمناور (المناور) وتزويدها بالمؤون والذخيرة في البلاد والحدود كافة [5] ، كما امر بردم مصب النيل عند

---

(١) ابن واصل ، المصدر نفسه ، والصفحة، المقريزى : السلوك ، حـ١ ، ص٤٧١ -

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٢، ص ٤٠٩ -

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤٦٥، ٤٨٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥١٠، ٥١٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٢، ص ٤٠٥ .

(٥) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص١٧٧ . المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٥٢٥ .

دمياط بالصخور الكبيرة ليحول دون مرور سفن الاعداء وتتكرر المأساة السابقة ، وعمر اسوار الاسكندرية جدد بناء منارتها ٠[1]

٦٠ تنظيم البريد :-

وحتى يعرف الاخبار بسرعة وتصل اوامره ، وضع للبريد نظاما ربط به جميع انحاء المملكة بشبكة من خطوط البريد البرية والجوية ، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل (المقطم) بالقاهرة ، فاليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من الولاة في سرعة ونظام[2] فكان البريد يصل من دمشق الى القاهرة، ومن القاهرة الى دمشق في ثلاثة ايام [3] وكان البريديون ينتخبون من خدم السلطان ومن ذوى الكفايات والذكاء ، ويشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الانشاء ٠

واستعمل البريد الجوى (الحمام الزاجل) في الحالات المستعجلة ، وكان لهذا الحمام ابراج خاصة بالقلعة ومراكز معينة في سائر انحاء الدولة [4]

وقد اقتضت الضرورات الحربية هذا النظام الدقيق والسريع للوقوف على كل ما يتجدد في انحاء المملكة ، ويأخذ حذره ٠

٧٠ تقوية الاسطول والجيش :-

عمل السلطان بيبرس على انشاء قوة برية وبحرية قادرة على صد اعداء الدولة الذين قد يغيرون عليها برا او بحرا فاهتم بدور صناعة السفن في الفسطاط والاسكندرية ودمياط وكان يشرف عليها بنفسه ٠[5] وجهزها بآلات

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ١، ص ١١١ ٠

(٢) انظر : القلقشندي : صبح الاعشى، حـ١٤، ص ٣٧٢ ـ ٣٨٢ ٠

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية : مادة بيبرس الاول٠

(٤) القلقشندى: صبح الاعشى ، حـ١٤،ص ٣٨٩ ـ ٣٩٤ ٠

(٥) المقريزى : الخطط ، حـ٢، ص ١٨٠، ٢٩٧ ٠

البحر، وقد وفر بيبرس الخشب لبناء السفن من جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء فقد احتكر الخشب المحلي لصالح بناء السفن ومنع الناس من بيعه او شرائه،[1] كما قام بقطع شجر الجميز بجزيرة الروضة لاستخدام خشبة في بناء اسطول جديد[2] كما عمل على تلافي العجز باستيراد الخشب والجديد من اسيا الصغرى[3] وايطاليا وتمكن بذلك من اعداد اسطول من خمسين قطعة .[4]

واهتم بيبرس بتقوية جيشه ، فكثر من شراء المماليك من بني جنسه، القفجاق (تركستان) حتى اصبحت بهم آهلة[5] ، وقد وفدت الى مصر جماعات من مغول القفجاق(تركستان) مستأمنة الى مصر في عهد بيبرس وسميت تلك الجماعات بالوافدية والتتر المستأمنة ، وصل منهم اول الامر سنة ١٢٦٢/ اواخر سنة ٦٦٠هـ)-٢٠٠ فارس ، ثم ما يزيد عن ١٣٠٠ فارس بعائلاتهم في سنة ١٢٦٣ هذا عدا عداد اخرى جاءت في السنة التالية.[6] وقد رحب بهم السلطان بيبرس وأكرمهم وانزلهم في دور بنيت لهم خصيصا بالقرب من اللوق بظاهر مدينة القاهرة ، كما انزل زعماءهم في بحريته ومماليكه.[7]

وهكذا اصبح جيش بيبرس من عدة فئات من الغرباء يقودهم قائد منهم

---

(١) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤٤٧ .

(٢) المقريزى : الخطط، حـ٢، ص١٨٥ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور، ص ٣٧ وحاشيته بدائع الزهور، حـ٢، ص١٨٢ .

(٤) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٤٤٧ .

(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، حـ٤، ص٤٥٨ .

(٦) انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، حـ٢، ص٤٠٦ ، ٤٠٧ . المقريزى: السلوك ، حـ١، ص٤٧٣، ٤٧٤ .

(٧) لمقريزى : السلوك ، حـ١، ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .

يعرف بأتابك العسكر، وبذلك تطور مفهوم اتابك من الامير الابالي قائد على اعتباره انه ابو العساكر ـ وهذا يتفق مع طابع العلاقة بين الاستاذ ومماليكه،[1] واصبح الجيش يتألف من المماليك السلطانية ، وهم الذين جلبهم السلطان وتولى تربيتهم ثم اعتقهم وهم بالتالي اعظم الجنود شأنا واقربهم الى السلطان ومنهم يختار الامراء.[2]

وهناك مماليك الامراء الذين يتبعون لامرائهم مباشرة ، ومنهم تتكون الوحدات الحربية التي يذهب بها الامراء مع السلطان في حروبه.

٨. مكافحة الصليبيين :ـ

أ. الامارات الصليبية : اتسمت سياسة بيبرس بطابع العنف والقسوة عندما تبين له ان الصليبيين اخذوا يتعاونون مع مغول فارس ، وعملوا لهم أدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على بلاد الشام.[3] هذا فضلا ان الصليبيين جاءوا مستعمرين لبلاد الشام وهم يطمعون في التوسع دائما ، وكان يرى فيهم بيبرس غزاة معتدين يجب طردهم.

وفي اوائل سنة ١٢٦٥ دخل بيبرس في عمليات واسعة ضد الامارات الصليبية الساحلية فاستولى على مدينة قيساوية ثم مدينة ارسوف ، وفي السنة التالية استولى على قلعة صفد قاعدة فرسان الداوية ، وقد اصابت اعمال بيبرس الصليبيين بالذهول ، فسارعت ملكة بيروت ازابيلا بنت الملك جون الثاني ابلين يطلب الهدنة سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م مدتها عشر سنوات ، ولعل من الطريف ان ازابيلا كانت تستودع بيبرس بلادها كلما عزمت على السفر.[4]

(١) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ، ص١٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، حـ٤، ص١٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٥٨٤، ٦٠٠ .

(٤) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، حـ٧، ص٣٥ .

واستولت الجيوش الاسلامية بقيادة بيبرس على مدينة يافا (٦٦٦هـ/١٢٦٨م) ثم تبعها بانطاكية بعد ان شدد عليها الحصار واعد بيبرس خطة لمهاجمة امارة طرابلس سنة ١٢٧٠/ ٦٦٩ ، فاستولى على المنافذ المؤدية الى المدينة والحصون المحيطة بها (حصن الاكراد، حصن عكار) ، وكادت المدينة ان تسقط لولا ورود انباء تفيد ان حملة صليبية ثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع، ولكن مراكب الفرنسيين وصلت الى تونس على الرغم من تصميمها التوجه نحو الشرق العربي.

وبعد ان اطمأن بيبرس على نتائج الحملة غادر مصر لمقاتلة الفرنج في طرابلس (١٢٧١)، فطلب اميرها بوهمند السادس طلب الصلح والمسالمة ، في نفس الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية بقيادة الامير ادورد الى عكا، فوافق على الصلح لمدة عشر سنوات.(١)

ب. محاربة مملكة ارمينيا في جنوب الاناضول ، فقد اسس الارمن مملكة في جنوب الاناضول وقلقيلية في المنطقة الممتدة من الرها شرقا الى قليقية غربا واتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم.(٢)

وقد قامت هذه المملكة بتقديم المساعدة الى الامارات الصليبية في الشام ، وتحالفت مع مغول فارس واخذت تحرض هولاكو وابنه ابغا على غزو الشام ومصر.

ارسل السلطان بيبرس حملة تأديبية بقيادة الامير قلاوون سنة ١٢٦٦ اغارت على المدن الرئيسية : اسيس ، اطنه ، طرطوس ، المصيصة ، وعاثت في البلاد تخريبا مدة عشرين يوما، ثم عادت بغنائم واسرى وكان من بينهم

---

(١) سعيد عاشور : الحروب الصليبية ، حـ٢، ص ١١٥٩ .

(٢) ارشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٣٤ .

ابن الملك شيثوم الاول ملك ارمينيا[1]، فأخطر الملك هيثوم ان يتنازل للمسلمين عن عدة مواقع استراتيجية هامة[2] وان يدفع جزية سنوية مقابل اطلاق سراح ولده[3]

جـ• محاربة مملكة النوبة : كان في النوبة مملكة مسيحية في اعالي النيل، تدين بالطاعة لسلطان مصر وتؤدى الجزية السنوية ، غير ان هذه التبعية كانت اسمية في غالب الاحيان•

وفي عهد صلاح الدين قامت هذه المملكة بغارات على البحر الاحمر، حتى بلغت عيذاب وتوغلت الى قوص•[4]

ومنذ قيام دولة المماليك البحرية تكررت اعتداءات النوبيين على الاراضي المصرية ، وانتهز ملك النوبة داوود فرصة انشغال بيبرس ضد المغول وهاجم اسوان سنة ١٢٧٢، وقد رد بيبرس على ذلك بارسال حملتين الى بلاد النوبة سنة ١٢٧٣، ١٢٧٥ بقيادة الاميرين آقسنقر الفارقاني وعز الدين الاقرم وشاركت البحرية النيلية في هذه الحملات بنقل الجنود والالات والاقوات حتى مدينة اسوان ، وتمكن الامير عز الدين الاقرم من الانتصار على الملك داوود واسره واقامة عمه شكنده الذى تعهد بدفع الجزية في كل عام ، وقد انشأ السلطان بيبرس عقب هذا الانتصار ديوانا خاصا للنوبة في القاهرة تحت اشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية بانتظام[5]•

---

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، حـ٢، ص١١٤٧ •

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، حـ٧، ص٣١ •

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٥٥٢، سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص١١٤٨•

(٤) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص٧٩ •

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، حـ٧، ص ٤٥، ٥١ •
المقريزى : السلوك،حـ١،ص٦٢١، ٦٢٢ •

٠٩ حرب المغول :ـ

لم ينته خطر المغول بمعركة عين جالوت ، ولكن المسلمين كانوا يتوقعون عودتهم وبخاصة عندما وجدت العلاقة بين المغول والفرنج في بلاد الشام ، مما دفع السلطان بيبرس الى تحصين ظروف الدولة لمواجهة مغول فارس، وكذلك عمل على افساد الطرق والوديان بما فيها من اعشاب ٠

وتولى ابغا بعد والده هولاكو (٦٦٣ـ ٦٨٠/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢م) وحاول الخان الجديد ان يجرب الصلح مع المسلمين بشروط تلائم المغول فقط سنة ١٢٦٨م٠

وتوجه الجيش الاسلامي بقيادة بيبرس لملاقاة المغول في ارضهم وتمكن من الانتصار على الجيوش المغولية وطارد فلولهم سنة ١٢٧٣، وبذلك امن حدود الدولة الشرقية ٠

ثم توجه نحو الشمال : اسيا الصغرى وذلك بسبب أن سلاجقة الروم كانوا تابعين للمغول منذ هولاكو، وكانت مقاليد الحكم بيد الوزير معين الدين سليمان البرواناه،[١] فتغلب عليهم ، ودخل عاصمتهم قيصرية٠[٢]

وقد استطاع السلطان بيبرس بأعماله الواسعة واصلاحاته الواسعة ان يحوّل دولة المماليك ، من دولة ناشئة الى دولة قوية مدعمة الاركان ، وان يمهد الطريق لخلفائه من بعده كي يتموا رسالته ، ومن هنا جاءت مكانته التاريخية، وشهرته عن سائر السلاطين لدرجة ان اخباره امتزجت فيها حقائق التاريخ بالخيال القصصي ، فكتب التاريخ مملوءة بأعماله الى جانب الملاحم الشعبية المعروفة بسيرة الظاهر بيبرس٠

---

(١) البراواناة : لفظ فارس معناه الحاجب٠

(٢) ابن الفرات : تاريخ الفرات ، حـ٧، ص٨٤ ٠

اسرة قلاوون والدفاع عن بلاد الشام ٦٧٩ ـ ٧٨٤هـ/١٢٧٩ ـ ١٣٨٢م

قــــلاوون :ـ

توفي السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٧م، فأقام الامراء ابنيه السعيد بركة ثم العادل سلامش في منصب السلطنة على التوالي ، ولما كان مجتمع الطبقة العسكرية الحاكمة في المماليك تشعر بالمساواة في العرف المملوكي ، وانه لا فضل لاحد على اخر باعتلاء العرش الا بالدهاء والحنكة وقوة الانصار ، لذلك لم يكن مفهوم او راسخ في اذهانهم مفهوم وراثة العرش وبخاصة في دور التأسيس ، ومن هنا ظهر قلاوون الالفي واستولى على السلطة في نهاية عام ١٢٧٩م/ ٦٧٩هـ.

ولكن استيلاء قلاوون على السلطنة جعله يتعرض لمتاعب جديدة اخطرها في بلاد الشام ، فقد ثار ضده الامير سنقر الاشقر واعلن نفسه سلطانا في نيسان سنة ١٢٨٠،[1] وعندما حلت الهزيمة بسنقر الاشقر في حزيران (١٢٨٠) فرّ الى الرحبة ، ومنها الى قلعة صهيون حيث استنجد بالمغول ، مما اتاح الفرصة لابغا وليو الثالث في غزو البلاد.[2]

ابغا المغولي في الشام :ـ

ارسل زعيم المغول ابغا في ايلول ١٢٨٠/ ٦٨٠هـ قوة استطلاعية احتلت عينتاب وحلب ، فأحرقوا المساجد والمدارس ودار السلطنة ودور الامراء،[3] وحاول الفرنج الاسبتارية استغلال الموقف واسترداد حصن الاكراد لكنهم فشلوا ، وفي طريق عودتهم انقض المماليك عليهم عند صافيتا فأنزلوا بهم خسائر جسيمة

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص٢٩٤ .

(٢) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩هـ

(٣) ابو المحاسن : النجوم ، جـ٧، ص٢٩٩

انسحبوا على اثرها الى الجزيرة .

ثم قام قلاوون بفصل المغول عن الصليبيين فعقد صلحا لمدة عشر سنوات مع الفرنج الداوية والاسبتارية وامير طرابلس ، وعفا عن سنقر الاشقر (١٢٨٧) وعينه حاكما على اقليم انطاكية وفاميا [١] وثمة ملحوظة هاهنا ان حكومة عكا الصليبية اختارت ان تقف على الحياد بين قلاوون وخصومه.

هزيمة المغول في حمص :-

ومن هنا نجد ان الصليبيين في الشام اختاروا مسالمة السلطان قلاوون في الوقت الذى كان خان المغول ابغا يعد لحمله جديدة .

خرج ابغا في ايلول سنة ١٢٨١/ ٦٨٠هـ بنفسه ، ومعه اخوه منكو تيمور بلغ ثمانين الفا . [٢]، ثم زحف المغول على وادى نهر العاصي ، فوصل امام حمص حيث كان جيش المسلمين مرابطا بقيادة قلاوون ، ودارت بين الفريقين معركة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٢٨١/ ٦٨٠هـ وحلت هزيمة منكرة بالمغول وحليفهم ليو الثالث ملك ارمينيا . [٣]

استرداد حصن المرقب من الصليبيين : ٦٨٤/ ١٢٨٥ :-

لم يكد يمض على الصلح مع الاسبتارية اربع سنوات ، حتى شرع المسلون بقيادة قلاوون بمهاجمة حصن المرقب ، وتم الاستيلاء عليه في اواخر ايار سنة ١٢٨٥ على الرغم من انه من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة ، [٤] وفي غاية العلو والمناعة. [٥]

(١) النويرى : نهاية الادب ، حـ٢٩، ورقة ٢٧٠(مخطوط).

(٢) ابو الفدا : المختصر، حوادث سنة ٦٨٠ .

(٣) انظر رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، حـ٢، ص٨٢(لم يتم منهم الا دون العشرين)

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٧، ص٣١٧ .

(٥) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٤.

وقد كان لاعادة هذا الحصن للمسلمين اثر في تقويض اركان الصليبيين بالشام لاهميته ومكانته.

استعادة اللاذقية ٦٨٣/ ١٢٨٧ وطرابلس ٦٨٨هـ / ١٢٨٩ :-

لقد كان قلاوون شديد الغضب على طرابلس منذ ان قام ملكها بوهموند السادس سنة ١٢٦٠ بالتحالف مع المغول واستدعائهم للتنكيل بالمسلمين.

وحانت الفرصة عندما اضطربت الاحوال في المدينة عندما حصلت بين اهل المدينة منازعات بسبب الانقسام بين مدينتي بيزا وجنوا الايطاليتين ، وحاول الجنويون استرضاء قلاوون.

انتهز قلاوون فرصة انشغال الاساطيل الايطالية بالحروب فيما بينها وارسل حملة الى اللاذقية بقيادة الامير حسام الدين طرنطاي فاستولت على المدينة في نيسان سنة ١٢٨٧/ ٦٨٦هـ.(١)

وعندما حانت الفرصة في طرابلس لكثرة الحوادث والانقسامات جمع قلاوون جيوش المسلمين المؤلف من اربعين الف فارس ومائة الف من المشاه، وخرج من مصر في بداية شباط سنة ١٢٨٩/ ٦٨٨هـ . وقد حاول اهل المدينة التضامن والاستنجاد بملك قبرص هنري ، ولكن هذا لم يفدهم ، فقد استولى المسلمون على المدينة في ٢٦ نيسان سنة ١٢٨٩/ ٦٨٨ فقام قلاوون بتدمير مدينة طرابلس القديمة ، وبنى طرابلس الجديدة بجوار النهر حول حصن صنجيل في الداخل بعيدا عن شاطيء البحر، خوفا من تهديد اساطيل الاعداء.(٢)

وقد كان لسقوط المدينة بيد المسلمين اثر على الصليبيين فقد اخلوا ما لهم من مراكز ومدن في امارة طرابلس مثل بيروت وجبيل ولم يبق لهم

---

(١) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٦. المقريزي: السلوك سنة ٦٨٦ .
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ،ج٧، ص٣١٩.

(٢) المقريزي: السلوك ،ج١، ص٧٤٨ .

سوى عاصمتهم عكا، وصيدا وصور وعثليث.

موت قلاوون ٦٨٩هـ /١٠/ تشرين الثاني سنة ١٢٩٠ :-

وصلت رسل الملك هنري الثاني الى القاهرة تطلب تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات وعشر اشهر في صيف عام ١٢٨٩م فوافق السلطان، كما اسرع الجنويون الى عقد صلح حرصا على مصالحهم التجارية، فكان في ١٣ ايار سنة ١٢٩٠، وبذلك اخذت العلاقات التجارية بين الصليبيين وبقية البلدان في داخل بلاد الشام.

ولكن لم تلبث ان جاءت حملة ايطالية تابعة للبندقية الى عكا في آب سنة ١٢٩٠، ولم تكد ارجلهم تطأ ارض عكا، حتى اخذوا يهاجمون المسلمين في اقليم عكار، واخذوا يذبحون كل من بداخل المدينة من العرب، مسلمين ومسيحيين،(١) ثم ارسلوا يعتذرون للسلطان عما حدث، فرفض السلطان اعتذارهم، واخذ يعد العدة لاسترداد عكا، فبدأ الجيوش، وعهد الى الامير شمس الدين سنقر الاعسر بالاستعداد للحرب.(٢)

ولكن لم يكد السلطان قلاوون يفرغ من استعدادته الحربية، ويغادر القاهرة لحرب الصليبيين بالشام حتى انتقل الى رحمته تعالى في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٢٩٠.

الاشرف خليل بن قلاوون :-

حاول الامير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة اقصاء خليل بن قلاوون عن منصب السلطنة، فلم يستطع، فقد تغلب خليل في القضاء على المؤامرة،

---

(١) المقريزى : السلوك، حـ١، ص٧٥٣ـ ٧٥٤.

(٢) المقريزى : السلوك، حـ١، ص٧٥٤.

وقتل الامير طرنطاي ، وهدأت الامور ، ولم يبق امام الاشرف خليل سوى تنفيذ مشروع ابيه باسترداد عكا .[1]

حاول الصليبيون في عكا طلب الصفح من السلطان ، فلم يقبل منهم ولم يكن هناك مفر من القتال.

اجتمعت الجيوش الاسلامية امام عكا ، وقدر عددها بستين الف فارس، ومائة وستين الف من المشاه ، فضلا عن عدد ضخم من آلات الحصار .[2] وذلك في ٥ نيسان سنة ١٢٩١ .

بذل الصليبيون كل ما يستطيعون لانقاذ عكا من السقوط ، فجمعوا قواتهم في الشام وعكا فضلا عن البحارة الايطاليين والصليبيين الجدد، حتى اجتمع منهم ما بين ثلاثين الفا واربعين الفا منهم ثمانمائة فارس واربعة عشر الف من المشاه ، وحاول جميع الصليبيين ان يتناسوا ما بينهم من حزازات واحقاد قديمة ، وتقاسموا جميعا الدفاع عن اسوار المدينة وقلعتها .

وجاء ملك قبرص هنري الثاني في ٤ ايار الى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاه ، وقدر كبير من المؤن والامدادات ، وحاول الملك هنري التفاهم سلميا مع السلطان خليل بن قلاوون بعقد صلح ولكنه فشل ، فعزم على الدفاع عن عكا ، ولكن سرعان ما فقد الامل في بقائها، فعاد الى قبرص ومعه قواته وفرسانه .[3]

واقتحم الجيش الاسلامي المدينة يوم الجمعة ١٨/ ايار/ ١٢٦١ رغم المقاومة التي ابداها جنودها ، بهرب من استطاع بحرا ، ووقع عدد ضخم من

(١) المصدر نفسه ، ص٧٥٧ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٨، ص٥،٦ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٨ ، ص ٦ .

اهل عكا في قبضة المسلمين ليقتلوا او يؤسروا ٠

وبهذا حقق الاشرف خليل استعادة مدينة من اهم المدن المغتصبة في بلا د الشام٠

تصفية الجيوب الصليبية : صور، صيداء، انطرطوس، عثليث :-

لم يبق للصليبيين الا معاقل قليلة في بلاد الشام ، وهي لا تستطيع البقاء بعد استرجاع عكا من قبل المسلمين٠

توجه الجيش الاسلامي الى مدينة صور في ١٩/ ايار ، فعندما سمع نائب هنري الثاني بمقدم الجيش فر هاربا الى قبرص ، فعادت المدينة دون مقاومة٠

وفر اهل صيدا عندما اقترب نائب السلطان الامير الشجاعي فتم استردادها في ١٤ / ايار سنة ١٢٩١، ثم أعيدت حيفا ايضا (١)

لم يبق للصليبيين في بلاد الشام سوى موضعين هما :انطرطوس، وعثليث وكانا تبعين للراوية فاستسلمت انطرطوس في ٣ اب ، اما عثليث فقد استسلمت في ١٤ آب سنة ١٢٩١م(٢) وبذلك تكاملت الفتوحات وتم جلاء الغزاة من جميع ديار العروبة والاسلام : "وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده، واورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم اجر العاملين"٠(٣)

صراع المماليك البرجية والاتراك :-

بلغ عدد مماليك قلاوون المميزين من الجراكسة في نهاية عهده ثلاثة آلاف وسبعماية مملوك(٤) وعني بهم قلاوون عناية خاصة٠

---

(١) المقريزى : السلوك ، حـ١، ص ٧٦٥، ٧٦٦٠

(٢) ابو الفدا : المختصر، حوادث ، سنة ٦٩٠هـ ٠

(٣) سورة الزمر، آية ٧٤ ٠

(٤) المقريزى : الخطط ، حـ٢، ص٢١٤ ٠

واتبع السلطان الاشرف خليل نهج ابيه بالاكثار من الجراكسة ، فاشتري في عهده القصير (٤ سنوات) الفي مملوك جميعهم من الجراكسة.[١] وخرج عن التقاليد المعروفة فسمح لهم بالنزول من القلعة نهارا على ان يبيتوا فيها ليلا.[٢] وازداد اعداد المماليك البرجية ، وبحصولهم على مميزات خاصة ادى الى الصراع مع المماليك الاتراك وزعيمهم انذاك بيدرا الذى زادت املاكه ونفوذه بشكل جعل السلطان يفكر بالتخلص منه،[٣] فاستغل بيدرا الموقف واشترك مع لاجين الرومي مؤامرة اودت بحياة السلطان الاشراف خليل وهو في الصيد فثارت ثائرة البرجية الجراكسة ولم تهدأ الا بعد قتل بيدرا .[٤]

وثبتت المماليك الرجية اقدامها بدفع احد امرائها للعرش، ولكن "سلاد الزعيم الثاني " للبرجية ومن معه بلغوا من الضعف ما هدد جميع الامراء، فاضطروا مرغمين لتنصيب الناصر محمد شقيق الناصر خليل وعمره تسع سنوات ،[٥] وتعيين كتبغا قائد البرجية نائبا للسلطة وسنقر الشجاعي التركي وزيرا، وبذلك وصل التعادل بين المماليك الجراكسة والاتراك. لكن كتبغا كان على جانب من الحنكة والدهاء فقد استطاع ابعاد خصومه من ابراج القلعة ، وحجر على اخرين[٦] فقام البرجية بثورة فاشلة ادت الى سيطرة كتبغا على السلطة ونصب نفسه سلطانا مما ادى الى تشريد قسم كبير من الاعداد الضخمة للبرجية في القلعة ، مما جمع شملهم وحدد هدفهم فقام لاجين بخلع

---

(١) حكيم امين عبد السد : قيام دولة المماليك الثانية ، ص١٢ .

(٢) العريني : المماليك ، ص ٨٥ .

(٣) عاشور : مصر والشام ، ص٢٠٣ .

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٨، ص٤١ .

(٥) المصدر والصفحة.

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور، حـ١، ص١٢١، ١٢٢ .

كتبغا وتنصيب نفسه سلطانا وعين مملوكه منكوتمر نائبا للسلطنة ، وبذلك ارتفع شأن المماليك البرجية على الرغم من قتل لاجين وتولى كرجي وهو من البرجية سنة ١٢٩٨م.(١)

ولم يستطع البرجية دفع احدهم الى العرش بالرغم من مكانه كرجي ، وكذلك المماليك الاتراك مما جعل الفريقان اعادة الناصر محمد نائبه الى العرش ، وعارض الامير كرجي الجركسي فقام بيبرس الجاشنكر(٢) سنة ١٢٩٨م، وبعودة الناصر محمد رجحت كفة المماليك الاتراك.

وفي سنة ١٣٠٧م اشتدت المنافسة بين الاتراك والجراكسة ، اثر محاولة الجراكسة اشغال اعلى المناصب ، فقام الناصر محمد بالتوجه الى الحج، وعندما وصل الى الكرك ارسل اشارات السلطنة وكتاب استقالته بالبريد سنة ١٣٠٨م، فسيطرت المماليك البرجية ورشحت زعيمها بيبرس الجاشنكر واوصلته الى العرش ، ولكن اعترضت سلطنته نواب بلاد الشام الاتراك ، وتعلق العامة بالسلطان المستقبل هذا الى جانب كثرة المماليك السلطانية من الاتراك، وكذلك خوف الامراء الاتراك من تسلط المماليك البرجية.

ويبدو ان بيبرس الجاشنكر لم يكن من القوة بحيث يستطيع مجابهة تلك الصعاب ، فتخلى عن العرش سنة ١٣٠٩هـ بعد فشل حملته على الكرك والتفاف النيابات الشامية حوله.(٣)

ولما عاد الناصر الى السلطنة ، عمل على الانتقام من المماليك الشراكسة، فاشترى عددا كبيرا من المماليك الاتراك ، وقام بترقيتهم بسرعة فائقة بعد

---

(١) العريني : المماليك ، ص١٧٧.

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ، حـ٨، ٢٤٨ ، ٢٥٠ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٨، ٢٥٨، ابن اياس، بدائع الزهور، حـ١، ص١٥٢ .

ان اغدق عليهم الاموال[1] ، ثم عمد الى تشتيت المماليك السلطانية من البرجية ، وامر بخنق بيبرس الجاشنكير واودع خمسة عشر اميرا ثم امر بابطال نيابة السلطنة.[2]

واستطاع الناصر ضبط امور الدولة الاقتصادية ورعاية شؤون الناس باخلاص، وامر ان تحمل اليه سجلات الدخول والمصروف في السلطنة[3] ، فأصاب الجزع ارباب الدواوين ، كما منع الرشوة ، وبذل المال للقضاة لضبط العدل، وعندما اصاب البلاد الغلاء الفاحش ، وزع والي القاهرة على الافران منعا لسرقة الخبز ومراقبته حتى يجتاز الشعب الازمة.[4]

اولاد الناصر محمد بن قلاوون : ٧٤١ ـ ٧٥٥هـ / ١٣٤٠ ـ ١٣٥٤م .

حكم من اولاد الناصر ثماني خلفاء[5] ، وقد تميز الوضع الداخلي السياسي والاقتصادى لهذا العهد بما يلي :ـ

١. تسلط الامراء على السلاطين :ـ

فقد عزل قوصون كبير الأمراء اول الاولاد بعد مضي ثلاثة اشهر على حكمه سنة ١٣٤١، فتولى الامر اخاه كجك وهودون السبع سنوات ، وقام قوصون بتسيير شؤون الدولة ، فقام الامراء وخلعوا السلطان واقاموا الناصر احمد مكانه سنة ١٣٤٢ [6] ، ولكن بعد ثلاثة وثلاثين يوما هرب الى الكرك

---

(١) المقريزى : الخطط، حـ٢، ص٢١٤ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ٩، ص١٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ، حـ٩، ص٧٧، ٧٨.

(٤) المقريزى : اغاثة الامة ، ص٣٤ ـ ٤٠ .

(٥) انظر قائمة السلاطين ، ص

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ١، ص١٧٨.

وطال مكوثه ، فطالبه الامراء بالعودة ، ولما رفض خلعوه وعينوا اخاه الصالح اسماعيل.[1]

٢. ازدياد الصراع السياسي بين المماليك الجركس والترك وتدهور الاقتصاد :ـ

اهمل السلاطين واجباتهم لانهم لم يشعروا بالاستقرار، كما انهم تولوا السلطة وهم صغار، وهذا اتاح للامراء من كلا الطرفين المماليك الجراكسة والاتراك على الصراع من اجل السلطة وغدو كالذئاب كل يخاف الآخر، ولم يقترح احد سلطانا قويا يخلص البلاد مما هي فيه من ضعف وفوضى ، وكان جل عملهم تغيير السلاطين من آل قلاوون لينفرد الواحد منهم بالسلطة[2] فقد قامت ثورة في الشام وقام السلطان شعبان بالتوجه اليها للقضاء عليها ، وبوصوله ، طالبه الاجناد بنفقة جديدة ، ولما لم يستطع، قتل ونصب مكانه حاجي بن الناصر محمد وعمره خمسة عشر سنة ،[3] سنة ١٣٤٦ وقد ادت هذه الى عودة النفوذ الشركسي بعد ان قام السلطان الجديد بقتل عدد من المماليك الاتراك ونفي بعضهم الى بلاد الشام ، واشتد الصراع بين المماليك وتمكن الاتراك من عزله وسجنه وقتله.[4]

٣. ازدياد نفوذ مماليك الامراء وظلمهم للرعية ، مما ادى مآسي اقتصادية وعسكرية :ـ

لا شك ان خلع السلاطين واستبدالهم بالسلاطين الاطفال كان عاملا اساسيا لضعف الدولة مما ادى الى فقدان مهابة السلاطين وسطوتهم وهذا فتح امام الامراء باب التجاوزات على الاعراف.

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ١، ص١٨٠، المقريزي : الخطط، حـ١، ص٥٢ .

(٢) انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية ، ص٢٦٨ .

(٣) انظر ابو المحاسن : حـ١٠، ص١٣٨ـ ١٣٩، ابن اياس : بدائع ، حـ١ ، ص١٨٧.

(٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ١٠، ص ١٥٨، ١٥٩ .

ومما زاد في اعداد المماليك في هذه الفترة شراء الامراء، وسطوتهم وارتفاع سلطانهم ، بحيث بلغت مماليك " حرغة ش ثمانماية مملوك"[1] وهذا افسح المجال امام بقية الامراء لاستقدام اعداد كبيرة من المماليك ليستطيع كل منهم حماية نفسه وفرض دوره في الصراعات الداخلية ، وهذا زاد من مخاوف السلاطين الذين غدا دور مماليكهم ضعيفا بالقياس الى مماليك نائب السلطنة او باقي الامراء.

وتعاظم امر الاتابك " يلبغا العمري" بحيث جعل مركبه افخم من الموكب السلطاني ، فكان يلبس مماليكه الطرز الذهبية العريضة ، وزادت خطورته عندما زاد عدد مماليكه الى مئة امير، وعين منهم نوابا في بلاد الشام ، فضلا عن ثرائه الفاحش بعد غزو القبارصة للاسكندرية ، ولم ينقذ البلاد الا انقسام مماليكه عليه ، واضمر له السلطان الناصر حسن الشر واوقع به وقتله.[2] وزاد الطين بله ، فقد ضرب البلاد سنة ١٣٤٨ طاعون رهيب، لم يوفر الماشية فاتى على اكثرها ،[3] وفاض النيل وبلغت زيادة عشرين ذراعا فأتلف المزروعات والغلال، وهدم الجسور، ولما ارادت الدولة ترميم ما تهدم من الجسور فرضت اعمال السخرة وصادرت الاموال.[4]

وبالرغم من تلك المصائب فان الامراء لم يأبهوا الامور الناس الاقتصادية والامنية فكانوا اشد سوءا عليهم.

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ١، ص٢٨ .

(٢) المقريزي : السلوك ، حـ٢، ق١، ص ٦٠ ـ ٦٢، ابن اياس : بدائع ، حـ١، ص٢٠١، ٢٠٢ .

(٣) ابن اياس : بدائع، حـ١، ص ١٩١ .

(٤) المقريزي : السلوك ، حـ٣، ق١، ص ١٢ ـ ١٣ .

وحاول السلطان الناصر حسن هدم معقل المماليك اليلبغاوية . و قبض على الامير يلبغا الخامكي الذى يشكل عقبة اساسية في استقرار السلطنة، ولكنه افرج عنه بناء على رغبة احدى محظياته ، فقام يلبغا وقضى على السلطان الناصر حسن واقام محمد بن حاجي بن محمد، وبموته بدأ احفاد الناصر محمد ٠

احفاد الناصر ٧٦٢ هـ - ٧٧٨هـ / ١٣٦١م - ١٣٨٢ م

تولى من احفاد الناصر اربعة سلاطين وهم صلاح الدين بن حاجي(سنتان)، شعبان بن حسن (١٤ سنة)، على بن شعبان (٥ سنوات) وحاجي بن سفيان (سنة واحدة)، وليست هناك اهمية خاصة في التاريخ تجعلنا نتكلم عن كل واحد، وحسبنا ان نعلم الفترة القصيرة التي لبث فيها كل واحد تركت أثرا في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية٠

وتتميز هذه الفترة فيما يلي :-

٠١ ازدياد نفوذ الامراء وتدهور الوضعين الاقتصادى والمالي :-

مما افسح المجال الى بروز النفوذ الجركسي بقوة، فقد اتهم الامير يلبغا السلطان صلاح الدين بن حاجي باختلال في عقله فعزلة وولى السلطنة لسلطان اخر من سلالة قلاوون هو شعبان بن حسين سنة ٧٦٤/ ١٣٦٣م[١] ولم يكن عهد السلطان الجديد بأفضل من عهد سابقه ٠٠٠٠ وهكذا٠

٠٢ اشتداد المساوىء الادارية والاقتصادية :

اشتدت المساوىء الادارية في عهد شعبان بالخروج عن النظم السائدة، فقد خلع على المقر السيفي(الدوادار) التكلم في نظر الاحباس ٠[٢]

(١) المقريزى : السلوك ، حـ٢، ق١، ص٥٨٢٠

(٢) ابن اياس : بدائع ، حـ١ ، ص٢٢٠ ٠

واحدث الوزير كريم الدين بن مكانس جديدة بعد ان الزم يلبغا كل وزير بدفع ١٧٠ الف درهم كشريف مكة تشجيعا للتجارة ٠[1] وارتفعت الاسعار كثيرا بسبب نقص مياه النيل وحصول الجدب ، واستمر ذلك اكثر من سنة٠[2]

٣٠ بروز برقوق مؤسس المماليك الجركسية :-

فقد وضع خطة للقضاء على السلطان ، فأوعز الى صهره الامير طشتمر الدوادار ان يعد المماليك السلطانية بنفقة مقداره عشرة آلاف درهم لكل جندى على ان يثوروا على السلطان حين الطلب ، ويقوم طشتمر بالقضاء على السلطان والامراء المرافقين له ، وفي الوقت نفسه تنشب ثورة في القاهرة بزعامة اينيك البدرى وينصب على بن شعبان على العرش٠

وتم تنفيذ المؤامرة ، وزال امراء كبار المماليك السلطانية ، وحل محلهم رؤساء المتآمرين مكانهم ، واضحى طشتمر اتابكا ، اينيك البدرى اميرا كبيرا وقرطاي طاز رأس نوبه٠[3] ثم اخذ هؤلاء يتحينون الفرصة ببعضهم ، حتى انفرد برقوق بعد ان تخلص من نفوذ الامراء الكبار ، فخلا الجولة ولاتباعه يسوسون البلاد على هواهم ويعملون على جركسة الدولة٠[4]

دولة المماليك البرجية ٧٨٤ ـ ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ :-

يرجع دخول المماليك الجراكسة الى السلطان قلاوون الذى رغب ان يؤسس فرقة جديدة من المماليك تنتمي الى جنس غير الاجناس التي انتمى اليها مماليك عصره ، فأقبل على شراء الجراكسة المنتمون الى بلاد الكرج ، وقد بلغ

(١) المقريزى : المصدر السابق ، حـ٣، ق١، ص٣٤٣ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ٣، ق١، ٢٧٦٠

(٣) المقريزى : السلوك ، حـ٣، ق١، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ ٠

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ١، ص٢٤١، ٢٤٣ ٠

عددهم في حياته اكثر من ثلاثة آلاف مملوك ، فعني بتربيتهم في ابراج القلعة مما جعلهم ينتسبون اليها .

وسار ابناء قلاوون واحفاده بالرعاية والعطف على هذه الطائفة الجديدة حتى يقال ان خليل بن قلاوون اشترى اثناء حكمه الفي مملوك منهم ، وقد وقفت المماليك البرجية كدعامة عن مصالح ابناء المنصور قلاوون ، في عهد الاشرف خليل ، واختيار الناصر محمد بن قلاوون.

وقد بقي المماليك البرجية في اتم الاخلاص في عهد قلاوون طالما هم في عزلة تامة ولا يتصلون بغيرهم من المماليك ، الترك ، فلا يتأثروا بأوضاعهم وروحهم التي تطرق لها الفساد، وزاد الفساد عندما اخذوا يتنافسون على السلطة في الوقت الذي كان يتظاهر فيه برقوق بالزهد في السلطة، واختص زملاءه وانصاره بالوظائف الرئيسة في الدولة ويعمل في الوقت نفسه على اكتساب محبة الناس ، فخفف عنهم الضرائب ، وسك نقودا من الزائفة، حتى اصبح صاحب الكلمة العليا في الحكم.(1)

عقد برقوق اجتماعا (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م) حضره الخليفة والقضاة والامراء، وطرح فكرة حاجة البلاد الى رجل رشيد يقضي على عوامل الاضطراب في الداخل والخارج فاجمع الحضور على خلع السلطان حاجي بعد حكم دام سنة ونصف وأعلن برقوق نفسه سلطانا وتلقب بلقب الظاهر ، وبقيامه بدأت دولة المماليك البرجية او الجراكسة التي عمرت ١٣٤ سنة (٧٨٤هـ - ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢ - ١٥١٧م) ، وتعاقب على حكمها ثلاث وعشرون سلطانا ، تسعة سلاطين حكموا ١٠٣ سنوات ، وحكم اربعة عشر سلطانا تسع سنوات فقط.

---

(1) ابن اياس : بدائع الزهور، ج1، ص٤٠٥ .

خصائص عصر دولة المماليك البرجية :-

تختلف دولة المماليك الثانية(البرجية = الجراكسة) عن الاولي(البحرية) في عدة نواحي اهمها :-

١• ان سلاطين المماليك البرجية كانوا جميعا جراكسة الجنس (٢١) ما عدا اثنين هما خشقدم وتمريغا •

٢• لم يطبق سلاطين المماليك البرجية مبدأ الحكم الوراثي الذى حاول سلاطين مماليك الدولة الاولى البحرية تطبيقه في عناد واصرار، والذى نجح في عصر بيت قلاوون•

٣• كان سلاطين الدولة الثانية زعماء او أمراء كبار اكثر منهم سلاطين، ونجاح السلطان يتوقف على مدى قدرته في توجيه كبار الامراء، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، فاذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة، فان ابنه يخلفه عادة لعدة اشهر فقط حتى ينجلي الموقف بين كبار الامراء ويستطيع احدهم ان ينفرد بالغنيمة•(١)

* * *

ارتبط تاريخ دولة المماليك البرجية بتسعة سلاطين وهم :-

برقوق ، وفرج ، وشيخ ، وبرسباى ، وجقمق ، واينال ، وخشقدم وقايتباى وقونصوه الغورى ، وترجع اهمية هؤلاء السلاطين الى مهارتهم الحربية ، وقدرتهم في الوصول الى اهدافهم بضرب خصومهم بعضهم ببعض •

وقد عرف كثير من اولئك السلاطين بحبهم لمجالس العلم والادب(برقوق، شيخ جقمق ، قايتباى) ، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع الامر الذى تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مدارس ومساجد وسبل ومشافي ، وربما كانت

---

(١) سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص٢٢٩ •

هذه المؤسسات ستارا للتكفير عن ذنوبهم وتغطية لما قاموا به من اعمال ضد خصومهم.[1]

السلطان برقوق ٧٨٤ ـ ٨٠١هـ / ١٣٨٢ ـ ١٣٩٨م :ـ

واجه السلطان برقوق عدة مشاكل اهمها :ـ

١. مؤامرة عزله وتعيين الخليفة المتوكل مكانه ، لكنه اكتشف المؤامرة فعزل المتوكل واحل محله الواثق بالله سنة ٧٨٥/ ١٣٨٣[2]

٢. قيام ثورة بالشام ضده بزعامة منطاش سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وقد تمكن الثوار من الاستيلاء على دمشق ثم زحفوا نحو القاهرة ، فهرب السلطان برقوق من القلعة ثم قبض عليه ونفي الى الكرك[3] ، فأعاد الثوار الى العرش حاجي بن الاشرف شعبان ، ولكن النزاع اشتد بين الاميرين الثائرين منطاش ويلبغا مما اعطى الفرصة الى برقوق لاسترداد سلطته بعد هروبه من الكرك وتجميع جيش بالشام ، فهزم خصومه عند صرخد ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠، ثم دخل القاهرة ظافرا.[4] ثم قام باخضاع منطاش بالشام.

٣. مواجهة المغول بقيادة يتمورلنك ، فقد توجه تيمولتك الى بغداد واستولى عليها سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣ مما جعل برقوق يعد العدة ، ويعمل حلفا من المماليك وامير سيواس ومغول القفجاق وسلطنة العثمانيين.

ارسل تيمورلنك رسالة مخيفة الى برقثوق يطلب منه التسليم السريع ويهدده بالويل والثبور، ورد برقوق عليه بنفس الاسلوب ، وطرد رسول تيمورلنك من القاهرة.

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ص١٤١، ١٥٩ .

(٢) ابن حجر : انباء الغمر، حـ١، ص٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حـ١١، ص ٢٧٥، ٢٨٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ، حـ٣، ص٦٣٤ ـ ٦٣٥ .

خرج برقوق على رأس حملة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م) لاعادة صاحب بغداد احمد بن اويس الذي لجأ الى القاهرة هاربا من بغداد، ولمحاربة تيمورلنك، لكنه وجد تيمورلنك قد عاد الى بلاده ، فعاد برقوق الى بلاده حيث توفي سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م ٠

فرج بن برقوق ٨٠١هـ/ ١٣٩٨ ـ ١٤٠٥م :ـ

تولى السلطة بعد ابيه ، وكان في الثالثة عشر من عمره ، وعندما سمع بعودة تيمورلنك باجتياح حلب سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠، واخذ يهدد دمشق ، اسرع الى الشام ، ولكنه ادرك حرج موقفه في الشام وخشي على حياته فعاد الى القاهرة تاريكا جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب ، فاضطرت دمشق الى التسليم بشروط معينة ولكن المغول لم يراعوا شروط الامان ، وزاد الطين بلة فرضخ فرج لشروط تيمرولنك ، واطلق سراح الاسرى٠(١)

لقد ادت تصرفات فرج الى خسارة مكانته في نفوس المواطنين ، وسرعان ما نشب نزاع بين امراء المماليك ، وعمت الفوضى ، واضطر السلطان فرج الى الاختفاء شهرين فحل محله اخوه المنصور عبد العزيز سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م٠

السلطان برسباي وفتح جزيرة قبرص :ـ

هو السلطان التاسع من سلاطين المماليك البرجية حكم ١٧ سنة (٨٢٥ ـ ٨٤٢هـ/ ١٤٢٢ ـ ١٤٣٨م) ، وهي مدة طويلة مقارنة بما حكم غيره ، وقد اتصف عهده بالاستقرار وقلة الاضطرابات مما جعله يقوم بغزو قبرص وذلك ردا على كثرة هجماتهم على شواطيء دولة المماليك ، فقد اغارو على الاسكندرية

---

(١) المقريزى : السلوك،حـ٣، ص٢٧ ٠

سنة ١٤٠٣م وعلى طرابلس الشام سنة ١٤٠٤ في عهد فرج ، ولم يكتفوا بذلك، فقد حرص ملوك قبرص على طعن دولة المماليك في اعظم مواردها وثروتها ، فاعتدوا على السفن والمتاجر المملوكية في عرض البحر ، ومنعوا السفن الاوروبية من الوصول الى الشواطيء المصرية لابتياع ما يلزمها من توابل.[1]

لذلك ، فكر برسباى في القيام بعمل حاسم ضد قبرص بعد ان تكرر العدوان من جانب قراصنتها على الاسكندرية والتجار المسلمين[2] .

قام برسباى بثلاث حملات ضد جزيرة قبرص :-

١. وهي الحملة الاولى الاستطلاعية سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م ، وقد تمكن رجال هذه الحملة من مهاجمة ليماسول واشعال النار في بعض احيائها والعودة الى مصر.[3]

٢. شجعت نتائج الحملة الاولى برسباى ، فأمر بالاستعداد لحملة جديدة توجهت نحو قبرص صيف ٨٢٨هـ/ ١٤٢٥م ، فوصلت ميناء قرباص على الشاطيء الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص ، ومن قرباص تحركت جنوبا قاصدة ميناء فاماجوستا .

مكث المسلمون اربعة ايام في منطقة فاماجوستا ، ثم شنوا فيها الغارات على الضياع المقريبة ، ثم توجهوا الى ليماسول واستولوا على حصنها المنيع ثم عادوا راجعين الى مصر .[4]

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٨١ ـ ٨٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ، حـ٤، ص٣٥٢ .

(٣) ابن حجر : ابناء الغمر ، حـ٢، ص١٠٦ .

(٤) المصدر والصفحة.

٣. الحملة الكبرى التي اخضعت ملكها :-

اعد برسباى حملة كبيرة خرجت من مصر سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، فوصلت ميناء ليماسول فاستولوا عليه،[1] ومنه توجهوا الى داخل الجزيرة فحصلت موقعه عند خيروكينا، فسحقت قوات القبارصة ووقع ملكهم جانوس اسيرا، ثم زحف المسلمون الى نيقوسيا، وصلوا فيها الجمعة.[2]

عادت الحملة الى مصر ومعها مئات الاسرى ومنهم ملك قبرص جانوس الذى ظل اسيرا حتى سنة ٨٣٠هـ/ ١٨٢٧م، فأفرج عنه السلطان برسباى بعد ان دفع فدية كبيرة وبشرط الاعتراف بالسيادة لسلطنة المماليك، ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرص تعتبر من جملة بلاد السلطان حتى سقوط دولة المماليك سنة ٩٣٢هـ/١٥١٧م، ويعتبر اخضاع قبرص وضمها من اعظم الاعمال الحربية التي تمت في عصر دولة المماليك البرجية.

السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس :-

لم يستطيع العزيز يوسف بن برسباى وهو ابن الرابعة عشرة من عمره ان يحتفظ بالعرش اكثر من ٩٤ يوما، وتولى بعده السلطنة جقمق الذى حكم ١٥ سنة (٨٤٢هـ - ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨ - ١٨٥٣م)، الذى عرف بتدينه وورعه، فحرّم المعاصي وشرب الخمر.[3]

ترجع اهمية هذا السلطان الى نشاطه الخارجي الذى تمثل فيما يلي :-

أ. تحسن العلاقات بين المغول ودولة المماليك، فبعد ان توفي تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م تمكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند، وبدأ هذا

---

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية، ص١٠٧.

(٢) المقريزى : السلوك، حـ٤، ص٣٧٤.

(٣) مجير الدين : الانس الجليل، حـ٢، ص ٤٤٣.

بصفحة جديدة مع المماليك فقد ارسل الى برسباي يطلب السماح له بكسوة الكعبة وتزويده بكتب ابن حجر العسقلاني والمقريزي ، فرفض برسباي طلبه ، اما جقمق فقد احسن استقبال الوفد ووافق على طلبه السابق على ان تكون الكسوة تحت امرة السلطان ، وتم لشاه رخ ذلك سنة ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م ٠

ب٠ غزو جزيرة رودس :-

صارت هذه الجزيرة قاعدة لفرسان الاسبتارية بعد ان هربوا من قبرص، واخذوا يقومون بغارات على شواطئ مصر ، فأغارت اربع سفن سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م على رشيد ٠

لقد اثارت اعمال الغارات جقمق ففكر "جقمق" في اخضاع رودس وجعلها تابعة للسلطنة كقبرص ٠

ارسل السلطان جقمق الى رودس ثلاث حملات سنة (٨٤٤ ، ٨٤٧، ٨٤٨ هـ / ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م) ، وقد فشلت الحملتان الاولى والثانية في تحقيق هدف واضح ، فاهتم جقمق باعداد الحملة الثالثة ، وحشد عددا كبيرا من الرجال والسفن ، وقامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس حاضرة الجزيرة مدة اربعين يوما ، وصمدت المدينة للحصار واستعصى على المسلمين احتلالها ، ثم ساء الموقف بوصول بعض الامدادات الاوروبية فعادوا وعادت الحملة فاشلة الى مصر ، الا ان صلحا قد تم بين فرسان رودس وسلطنة المماليك ولكن العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء والعداء بقية القرن الخامس عشر ٠[1]

---

(١) سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص ٢٤٣ ٠

السلطان الاشرف قايتباى ٨٧٣ - ٩٠١هـ/ ١٤٦٨ - ١٤٩٥م :-

وتعاقب سلاطين المماليك في سرعة متناهية ،[١] فكان بعضهم لا يكاد يعتلي العرش اياما حتى يعزل مما يشهد على عدم الاستقرار الذى اصاب سلطة المماليك ، ولم تستقر الاوضاع الا بقيام السلطان الاشرف قايتباى في منصب السلطنة سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) الذى حكم قرابة تسعة وعشرين سنة مما يثبت بأن قيتباى من اقدر السلاطين المماليك في ميدان الحرب وأوسعهم خبرة واكثرهم شجاعة.[٢]

وقد استطاع قايتباى ان يواجه في جرأة عدة مشاكل كادت تعصف بالدولة ولكنه انتصر عليها :-

١. مواجهة الدولة التركمانية (دولة دلغادر ودولة رمضان ، دولة قرمان) والشاه البيضاء والشاه السوداء : التي هددت الاطراف الشمالية لدولة المماليك في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى وقد ازداد تدخل التركمان في شؤون حدود دولة المماليك مما جعل قايتباى يفكر في وضع حد للتركمان حتى يكونوا اداة تغلغل لنفوذ الدولة العثمانية الفتية ، لذلك قام السلطان بارسال عدة حملات ضد شاه سوار، امير دلغادر بقيادة الامير يشبك ، وقد نجحت الحملة سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م في انزال الهزيمة بشاه سوار والاستيلاء على قلعة عينتاب واذنه طرسوس ، والقبض على شاه سوار الذى القي القبض عليه وشنقه على باب زويلة[٣]

---

(١) انظر شجرة المماليك البرجية فقد حكم خلال المدة ستة سلاطين خلال ١٦ سنة.

(٢) سعيد عاشور : مصر والشام ، ص٢٤٥ .

(٣) سعيد عاشور : مصر والشام ص٢٤٦.

٢. اخضاع قبيلة الشاه البيضاء سنة ٨٧٧/ ١٤٧٢ :-

دأبت قبيلة الشاه البيضاء واميرها حسن الطويل الاغارة على اعمال حلب، فأرسل قايتباى حملة بقيادة يشبك سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢، وقد احرزت هذه الحملة انتصارا على حسن الطويل عند البيرة على نهر الفرات كما اخضع امارة الرها، وكانت تابعة للاولى بحكمها نائبة احد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل، سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م وقد اسره يشبك وقتله، وقتل كثيرا من امراء المماليك، وبذلك استطاع قيتباى تأمين حدود دولته من الناحية الشمالية.

هذا ولم يهمل قايتباى شؤون رعاياه ودولته، وقد جمع الاموال وفرض الضرائب، وقد استغل الاموال الطائلة التي جمعها في اقامة المنشئات العديدة، فقد اقام مسجد قايتباى بالقاهرة والوكالات التي اقامها تمتاز بفنها العربي الاصيل[٢]، وكما شغف باصلاح آثار وترميم ومنشآت اسلافه، وقام بانشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية، ولم يتقدم عليه من افعال واعماله سوى الناصر محمد بن قلاوون.[٣]

نهاية دولة المماليك :-

ساءت الاحوال في مصر في اواخر عهد السلطان قايتباى، وضاق الناس بكثرة الاعباء المالية الملقاه على عاتق الشعب، وزاد الامر سوءا انتشار الطاعون (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) وفتك في الناس فتكا ذريعا حتى انه كان يموت بالقاهرة في اليوم الواحد اكثر من عشرة آلاف[٤]، هذا بالاضافة الى انخفاض مياه نهر النيل، وانعدام الاقوات.

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ٣، ص١٧١، (تحقيق محمد مصطفى).

(٢) زكي محمد حسن : فنون الاسلام، ص٧٧، ٧٨ - ٨٢ - ٨٤ .

(٣) Lane poole: Ahistori of Egypt, P. 344.

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ٣، ص٢٨٧.

وفي وسط هذه الظروف القاسية لم يتورع المماليك من الوقوع في منازعات مع بعضهم البعض (سنة ٩٠٠/ ١٤٩٥) ، واستبد المرض بالسلطان الذى جاوز الثمانين من عمره المرض، فتنازل عن العرش لابنه محمد، ثم توفي في اليوم التالي سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م.

كان السلطان الجديد صغيرا في الرابعة من عمره مما اوجد النزاع بين كبار الامراء للتنافس حول الوصاية على السلطان الصغير، وتمكن قانصوة من تولي الوصاية فاستبد بالسلطة ، ثم اعلن نفسه سلطانا سنة ٩٠٢/ ١٤٩٧م.

ولم يلبث خصوم قانصوة ان خلعوه وقتلوه ، واعادوا محمد بن قايتباى الى السلطنة ،[1] فقام هذا باستثارة نفور الناس بحماقته وطيشه وميله لسفك الدماء في الوقت الذى استبد المماليك الجلبان مما جعل الامراء يضيقون بالمماليك الجلبان والسلطان، فقتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م واختاروا شريكهم الظاهر قوانصوه (خال القتيل) ليتولى سلطنة المماليك، فعزل الظاهر قانصوة ليتولى بدله الاشرف جانبلاط سنة ٩٠٥هـ/ ١٥٠٠م ثم عزل وخنق وحل محله طومان باى (الاول) سنة ٩٠٦/ ١٥٠١ الذى لم يبق في منصب السلطنة سوى بضعة اشهر، حيث خنق وحل محله الاشرف قانصوة الغورى في نيسان ١٥٠١/ ٩٠٦ هـ .

السلطان الاشرف قانصوة الغورى ٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠٠ - ١٥١٦م :-

حاول قانصوة الغورى ان يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضت عليه، وامتنع في البداية واخذ يبكي خوفا مما قد يتعرض له عند قتله ، لذلك اشترط عليهم " عدم قتله اذا ارادوا خلعه"[2].

---

(١) المصدر السابق ، ص٣٥٤ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور، ج٤، ص٤ .

اثبت السلطان قانصوة الغوري انه رجل قوي صلب العود، رغم انه كان قد تجاوز الستين من عمره ، فقام باعادة الامن والاستقرار الى العاصمة، وملأ مناصب الدولة بمن يثق بهم من كبار الامراء[1]، ثم قام بعلاج الازمة المالية فجمع ضرائب عشرة اشهر مقدما، وفرض ضرائب على الطواحين والسفن ودواب النقل حتى الاوقاف الخيرية ، وسك عملة جديدة ، وضاعف المسكوك والرسوم الجمركية مما انزل اضرارا بالغة بالتجار خاصة.[2]

وقام بعدد من الاصلاحات فشيد مسجدا ومدرسة ، وعني بطريق الحج وحفر بعض الابار، فضلا عن عنايته بحفر الترع وتحصين الاسكندرية ورشيد واصلاح القلعة ، واشتهر بلاطه بالمجالس الادبية التي ضمت الشعراء والادباء والعلماء.

وتعرضت دولة المماليك في هذه الفترة لخطرين عجلا في نهايتها :

١. الصدام مع البرتغاليين

٢. الاحتكاك مع العثمانيين .

١. الصدام مع البرتغاليين : بسبب اكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول طرق التجارة:

لقد ادى تحرك المغول وتوسعهم منذ القرن السابع الهجري(١٣ ميلادي) الى ضياع اهمية الطريق التجاري الرئيسي الذي كان يربط الشرق بالغرب ، وهي الطريق البري المار بسمرقند الى الخليج العربي ، فلم يبق هناك طريق آمن بعيد عن عين المغول سوى طريق البحر الاحمر ومصر، وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة وفرضوا ضرائب مرتفعة على الغلات الاسيوية وبخاصة

(١) المصدر نفسه ، ح٥، ص ٣٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٩ ـ ٩٠

التوابل التي اصبحت تباع للتجار الاوروبيين في الاسكندرية ودمياط يفوق اربعين مرة ثمنها المستورد به من بلدان الشرق الاقصى.(1)

وضاق التجار الاوروبيون بذلك فبدأت الجهود لاكتشاف طريق آخر غير طريق مصر، فكان ان نجح بارثلميو دياز في كشف رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢/ ١٤٨٧م، وتلاه فاسكوديغوما في الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول افريقيا سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨، فحقق البرتغاليون نصرا جديدا واستطاعوا ان يوفروا للسوق الاوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الاقصى بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به في مصر.

وسرعان ما اهتزت سلطته المماليك لذلك الانقلاب المفاجيء في طرق التجارة العالمية، وحرم السلاطين من اموال كثيرة، وحاول السلاطين المماليك بالتعاون مع البنادقة على ارسال حملة الى فاليقوط لطرد البرتغاليين، وحاول السلطان قايتباي تحريض الحكام المسلمين بالهند على طرد البرتغاليين محاربتهم، على ان جميع الجهود ذهبت بلا فائدة.

صمم السلطان على القيام بعمل حاسم وبخاصة عندما اصبحت التوابل مكدسة في الثغور المصرية، فأعد حملة كبيرة بقيادة حسين الكردى نائب جدة سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، واستطاعت الحملة ان تنزل الهزيمة بالبرتغاليين للشواطيء الغربية للهند سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، ولكن البرتغاليين انتقموا لانفسهم في العام التالي وانزلوا في الاسطول المصرى هزيمة ساحقة في موقعة ديو البحرية.

ولم ييأس السلطان الغورى بعد موقعة ديو، فقام بعدة محاولات للقضاء على النفوذ البرتغالي في الهند، الا ان تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح، مما ادى الى ذبول التجارة في دولة المماليك، عماد الاقتصاد في الدولة

---

(1) سعيد عاشور: مصر والشام، ص ٢٥٣.

في الوقت الذى بدأ به يشتد خطر العثمانيين على دولة المماليك في الشام ومصر.[1]

٢. الصدام مع العثمانيين " موت قانصوة الغورى" :-

شهد بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى تضخم نفوذ قوة جديدة في الشرق الأدني هي قوة الاتراك العثمانيين ، وقد اتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونية (٧٠٧ ه/ ١٣٠٧) فرصة طيبة للعثمانيين للذين اخذوا يتوسعون لسرعة على حساب الامارات والقبائل التركية التي وجدت في آسيا الصغرى ، فتوسعت توسعا سريعا على حساب الدولة البيزنطية، وعلى حساب القوى الاسلامية في آسيا الصغرى.

ونهضت الدولة العثمانية على الرغم من هزيمة السلطان العثماني بايزيد الاول في موقعة انقرة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م، وتمكن السلطان محمد الاول من احياء الدولة واستئناف سياسة التوسع وتمكن محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، وكانوا المماليك ينظرون الى تحقيق نصر العثمانيين انه نصر للأسلام والمسلمين ، وادرك العثمانيون هذه الحقيقة فكانوا يرسلون بعض الاسرى الى القاهرة بعد كل نصر يحققوه، كما حرص سلاطين القاهرة على ارسال التهاني في الدولة العثمانية ، كلما تولى سلطان جديد او تم نصر جديد.[2]

وبدأت العلاقة بين الدولتين تتعكر، ثم تحولت سياستهما الى الحرب والقتال ، فعندما توفي امير قرمان دلغادر سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥، قامت كل دولة بمناصرة امير.

---

(١) سعيد عاشور : مصر والشام ، ص٢٥٥.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور، سنة ٨٥٧هـ، ص١٤ .

وفر " جم" شقيق السلطان العثماني بايزيد الثاني الى القاهرة، فرحب السلطان قايتباى به ، وزاد الامر سوءا عندما طلب السلطان العثماني بايزيد الثاني من السلطان قايتباى القيام ببعض اصلاحات في مكة المكرمة ، فرفض طلبه ، مما جعل السلطان العثماني يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ امارة دلغادر - الخارجة على طاعة المماليك عندئذ - مسرحا لذلك التحرش.(١) ولم تتخذ المصادمات بين المماليك والعثمانيين شكلا جديا الا في عهد السلطان سليم العثماني وقانصوة الغورى ويعود ذلك الى استيلاء السلطان سليم على الجزيرة الفراتية والموصل ذات الروابط القديمة بسلطنة مصر، بالاضافة الى قضاء السلطان سليم على امارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك.(٢)

لم يستطع السلطان الغورى ان يظل ساكنا ازاء الاستفزازات العثمانية، فقام باسترضاء المماليك الغاضبين عليه ، استعدادا للمعركة ، واستدعى العسكر الى ديوان الجيش واعد آلات الحرب ، وحصن قلعة قايتباى في الاسكندرية.

وصلت رسالة من خايربك نائب حلب المملوكي تفيد ان استعدادات السلطان سليم اغاهبي موجهة نحو الشاه اسماعيل الصفوى،(٣) والرسالة تكشف عن دور الخيانة الذى لعبه خايربك.

لم ينخدع الغورى برسالة خايربك ، فعقد مجلسا حربيا لبحث الامر مع امرائه ، واستقر الرأي على ضرورى المبادرة بارسال حملة كبيرة الى حلب استعدادا للطوارىء ، وكان السلطان الغورى على رأس تلك الحملة.(٤)

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص٢٠٥ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ٤، ص ٤٣٥ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص٢١٤ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ، حـ٤ ، ص٤٣٥ - ، حـ ٥ ص ٢٧ ، ٢٨ .

وصلت رسالة الى الغوري في الريدانية من خايربك ، واخرى من السلطان سليم العثماني تحوي كثيرا من عبارات الود والمحبة والرغبة في التعايش السلمي مع سلطنة المماليك،[1] ثم ارسل السلطان العثماني رسولين في حلب الى قانصوة الغوري يعرضان الصلح ، ولكن هذه الخدع والحيل لم تنطل على الغوري ، فقد استدعى - وهو بحلب - امراءه جميعا وحلفهم على القرآن بأن لا يخونوه في ساعة الشدة.

التقى الجيشان عند مرج دابق ، فحارب المماليك بشجاعة نادرة ، حتى فكر السلطان سليم العثماني في التقهقر لاعادة تنظيم صفوفه ، وفي تلك اللحظة الحرجة ، كشف خايربك عن وجهه ، واشاع بين صفوف الجند ان السلطان الغوري يأمرهم بعدم التقدم ، ثم اسرع فانسحب من الميدان بعد ان اشاع ان السلطان الغوري خر قتيلا ، فانهارت صفوف المماليك ، وعندما حاول الغوري ان يوقف تيار الفرار، سقط ميتا من فوق فرسه . وقيل ان السلطان سليم قطع رأس الغوري وارسلها الى اسطنبول في حين دفنت جنته عند حلب ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م.

طومان باي نهاية دولة المماليك :-

تطلب الموقف في القاهرة اجراء عاجلا سريعا بعد هزيمة المماليك في مرج دابق ووفاة السلطان قانصوة الغوري ، وزحف السلطان سليم العثماني على بلاد الشام في طريقه الى مصر .

وتم اختيار طومان باي سلطانا سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م . وتلقب بالاشرف، وهو اخر سلاطين المماليك في مصر والشام.[2]

---

(١) المصدر نفسه : حـ٥، ص٦٨ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور، حـ٥، ص١٠٣ .

تولى السلطان الاشرف طومان باى في ظرف لا يحسد عليه ، وقد قبل المنصب املا كل تعاون من امراء المماليك ، ولكن خاب ظنه بسبب انحلال المماليك الذي اعماهم عن رؤية الخطر المحدق بهم٠

فكر طومان باى في الاسراع الى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين قبل ان يتمكنوا من دخول مصر، ولكن المماليك خيبوا ظنه فأخذوا يتعللون بأعذار ويطالبون بالاموال الباهظة ، فاضطر ان يجمع ما استطاع جمعه من الصبيان والشعار والمغاربة وخرج بهم لملاقاة العثمانيين في الريدانية[1] (العباسية)٠

اما السلطان سليم العثماني فقد زحف بعد حلب ، ودخل دمشق بعد مفاوضات قصيرة حيث استراح شتهرين ثم زحف الى غزة ومنها الى مصر٠

التقى العثمانيون بالمماليك في معركة الريدانية ، حيث أظهر طومان باى الى القاهرة ليواصل المقاومة بين شوارعها، حتى نجح في اخراج سليم من القاهرة بعد ان دخلها ، ولكن طومان باى فوجيء بهجوم البدو والاعراب على مؤخرته على ضفاف النيل بالجيزة ، فاضطر الى التقهقر الى قرب وردان حيث دارت بين جيش المماليك الصغير والعثمانيين[2] ، فانتصر العثمانيون، وفر طومان باى الى احد مشايخ الاعراب بمديرية البحيره واسمه حسن بن مرعي طالبا حمايته ، وكان لطومان باى له عليه فضل اذ اخرجه من السجن ايام الغوري ، ولكن الشيخ نسي ذلك وسلمه للعثمانيين الذى صاح :

" الان ملكنا مصر " ، ثم سبق طومان باى الى باب زويلة فشنق هناك سنة ٩٢٣هـ/ ٢٣ نيسان سنة ١٥١٧م٠ وهو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام٠

---

(١) المصدر نفسه : ص ١١٩ ٠

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص٢٢٦ ٠

اسباب انحطاط السلطنة المملوكية :ـ

يعود انحطاط السلطنة المملوكية الى عوامل مختلفة اهمها :

١٠ العامل العسكرى

٢٠ العامل الاقتصادى٠

١٠ العامل العسكرى:ـ

عرف عن النظام المملوكي بأن هناك فترة كافية من التدريب يقوم بها المملوك في المدرسية ، وطاعة من المملوك لاستاذه، وتمسك برابطة الخشداشية، ولكن المماليك الشراكسة لم يتقيدوا بهذه القواعد، فمدة الدراسة تناقصت بالتدريج ، وكثير من المماليك الشراكسة وصلوا دون ان يتدربوا في المدارس الخاصة، مما ادى الى انحلال النظام العسكرى المملوكي ، وهناك شدة معاداة السلاطين ، وهذا بدوره اضعف المماليك في البلاد ، واخيرا رفضهم مجهودات تطوير استخدام الاسلحة وبخاصة النارية(البندقية)٠ (١)

٢٠ العامل الاقتصادى:ـ

بدأ انهاك الاقتصاد منذ هجوم تيمور في مطلع القرن الخامس عشر ، بسبب الدمار الذى احدثه ، ثم نقص متكرر في مياه النيل الذى اضرّ بالزراعة، وانتشار الطاعون والاصابات المميتة عطلت الفعاليات البشرية وشلت النشاط الاقتصادى ، فكان اضطراب الحالة السياسية وضعف السلاطين٠

كما ان تحول طرق التجارة ادى الى انحطاط الاقتصاد ثم فشل المماليك في وضع حد للخطر البرتغالي الاقتصادى والعسكرى٠

---

(١) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون٠

كما لا تنسى ازدياد فرض الضرائب من قبل الحكام على الفلاحين والبضائع والمصنوعات.

وقد ادت هذه العوامل الى عجز الخزينة الى دفع مرتبات الجنود ، وبالتالي الى فرض الاموال على الاهلين.(1)

فضل المماليك :-

1. ان من اهم ما اداه المماليك لمصر والشام . هو حربهم المغول وهزيمتهم لهم اربع مرات متواليات ، اثبت فيها المماليك انهم من اقدر الناس على الحرب واثبتهم جنانا.(2)
2. تصفية بقايا جيوب الصليبيين في بلاد الشام طرابلس ، وانطاكية، وصيدا وصور، عكا ... واعادة فتح جزيرة قبرص التي بقيت معهم حتى نهاية حكمهم.
3. اعادة الخلافة الاسلامية ، فقد اعاد بيبرس الخلافة بعد ان قضى عليها هولاكو المغولي .
4. حفظوا لبلاد الشام ومصر المذهب السني بالرغم من بعض المحاولات لاعادة المذهب الشيعي.
5. حافظ المماليك على اللغة العربية والتراث الاسلامي من الاندثار والزوال
6. حفظ بلاد الشام من الاستعمار والتجزئة مدة قرنين ونصف (٦٤٨ - ٩٢٣/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) .

---

(1) عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون،ص٢٤.

(2) حسين مؤنس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث ص ٢٥ .

احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ح٥، ص١٩٨.

سـلاطين المماليك البحرية

اولا : السلاطين قبل قلاوون

٠١ ايبك	٦٤٨هـ = ١٢٥٠م
٠٢ علي بن ايبك	٦٥٥هـ = ١٢٥٧م
٠٣ قطز	٦٥٧هـ = ١٢٥٩م
٠٤ الظاهر بيبرس	٦٥٨هـ = ١٢٦٠م
٠٥ بركة خان بن بيبرس	٦٧٦هـ = ١٢٧٧م
٠٦ سلامش بن بيبرس	٦٧٨هـ = ١٢٧٩م

ثانيا : عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر

٠٧ قلاوون	٦٧٩هـ = ١٢٧٩م
٠٨ الاشرف خليل بن قلاوون	٦٨٩هـ = ١٢٩٠م
٠٩ الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الاولى)	٦٩٣هـ = ١٢٩٣م
٠١٠ كتبغا	٦٩٤هـ = ١٢٩٤م
٠١١ لاجين	٦٩٦هـ = ١٢٩٦م
الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	٦٩٨هـ = ١٢٩٨م
٠١٢ بيبرس الجاشنكير	٧٠٨هـ = ١٣٠٨م
الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	٧٠٩هـ = ١٣٠٩م

ثالثا : أولاد الناصر

٠١٣ ابو بكر بن الناصر محمد			٧٤١هـ = ١٣٤٠م
٠١٤ كجك بن الناصر محمد			٧٤٢هـ = ١٣٤١م
٠١٥ احمد بن	=	=	٧٤٢هـ = ١٣٤٢م
٠١٦ اسمعيل بن	=	=	٧٤٣هـ = ١٣٤٢م
٠١٧ شعبان بن	=	=	٧٤٦هـ = ١٣٤٥م
٠١٨ حاجي بن	=	=	٧٤٧هـ = ١٣٤٦م
٠١٩ حسن بن	=	=	٧٤٨هـ = ١٣٤٧م
٠٢٠ صالح بن	=	=	٧٥٢هـ = ١٣٥١م
حسن بن الناصر محمد (سلطنته الثانية)			٧٥٥هـ = ١٣٥٤م

(١) الدكتور ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٨ ـ ٠٩

رابعا : احفاد الناصر

٠٢١ صلاح الدين بن حاجي ٧٦٢هـ = ١٣٦١م

٠٢٢ شعبان بن حسن ٧٦٤هـ = ١٣٦٤م

٠٢٣ علي بن شعبان ٧٧٨هـ = ١٣٧٦م

٠٢٤ حاجي بن شعبان ٧٨٣ - ٧٨٤ هـ = ١٣٨١ - ١٣٨٢م

وسلاطين المماليك البرجية هم :-

٠١ برقوق ٧٨٤ - ٨٠١هـ = ١٣٨٢ - ١٣٩٨م

٠٢ فرج بن برقوق ٨٠١هـ = ١٣٩٨م

٠٣ عبد العزيز بن برقوق ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م

فرج للمرة الثانية ٨٠٩هـ = ١٤٠٦م

٠٤ العادل المستعين بالله الخليفة العباسي ٨١٥هـ = ١٤١٢م
(اصبح سلطانا ايضا)

٠٥ المويد شيخ ٨١٥هـ = ١٤١٢م

٠٦ احمد بن المؤيد (لم يكمل العام في الحكم) ٨٢٤هـ = ١٤٢١م

٠٧ سيف الدين ططر ٨٢٤هـ = ١٤٢١م

٠٨ محمد بن ططر (لميكمل العام في الحكم) ٨٢٤هـ = ١٤٢١م

٠٩ الاشرف بارسباى ٨٢٥هـ = ١٤٢٢م

٠١٠ يوسف بن بارسباى (حكم ٩٤ يوما) ٨٤٢هـ = ١٤٣٨م

٠١١ جقمق (تشقمق) ٨٤٢هـ = ١٤٣٨م

٠١٢ عثمان بن جقمق (لميكمل العام في الحكم) ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م

٠١٣ سيف الدين اينال ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م

٠١٤ احمد بن اينال (حكم اربعة اشهر) ٨٦٥هـ = ١٤٦٠م

٠١٥ خشقدم ٨٦٥هـ = ١٤٦١م

٠١٦ بلباى ٨٧٢هـ = ١٤٦٧م

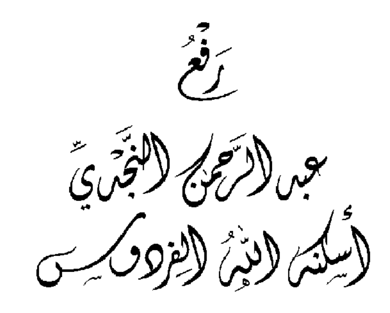
٠١٧ تيمور بغا (*) ٨٧٢هـ = ١٤٦٨م

٠١٨ قايتباى ٨٧٣هـ = ١٤٦٨م

٠١٩ محمد بن قايتباى (**) ٩٠١هـ = ١٤٩٥م

٠٢٠ الظاهر قانصوة الاشرفي ٩٠٤هـ = ١٤٩٨م

٠٢١ اشرف جانبلاط ٩٠٥هـ = ١٤٩٩م



الفصل الخامس

النظم والمؤسسات في الدولة المملوكية :

١. السلطنة

٢. الادارة

٣. الجيش

٤. الاقطاع

٥. المجتمع الاقطاعي

ابرز المنجزات الحضارية :

١. العمران

٢. التعليم والثقافة والتأليف.

١٠ السلطنة :

كان السلطان في الدولة المملوكية رأس الدولة يتولى الحكم بقوته ومواهبه وكثرة مماليكه ، فاذا توفي السلطان خلفه في الحكم اقوى الامراء، وفي حالة وجود ظروف غير مناسبة وان هناك من الامراء من ينافس هذا الامير، كان يلجأ الى تعيين ابن السلطان المتوفي ريثما يتضح الموقف ويصبح الامر سهلا على اقوى الامراء ان يعزله ويتولى السلطنة مكانه ٠[(١)]

وقد تعاقب على رئاسة الدولة المملوكية سلاطين منهم القوى الذى يسيطر على شؤون الحكم سواء عن طريق اثارة الخلافات بين الامراء او عن طريق كثرة الاعطيات ٠ ومنهم الضعيف الذى اطلق ايدى المقربين اليه في امور الدولة ٠ وتسلط على الدولة الامراء الاقوياء الذين كانوا اذا وجدوا الفرصة المناسبة عملوا على الاطاحة بالسلطات وجلسوا مكانه على العرش٠[(٢)]

وكانت الفرص المواتية للسيطرة على العرش مختلفة منها : التخوف من اشتداد شكيمة السلطان بحيث يستطيع الاطاحة بشركائه في الحكم ، ومنها الخوف من انقلاب مفاجيء يقوم به الامراء على صاحب النفوذ ، ومنها النزعة الشديدة من قبل بعض الامراء للوصول الى السلطنة٠[(٣)]

ومن الامثلة على ما سبق ، ان الامير كتبغا استأثر بالسلطة دون غيره من الامراء عندما كان نائبا للسلطان الناصر محمد في سلطنته الاولى سنة١٢٩٣م مستغلا صغر سن السلطان مما ادى الى ثورة الطامعين بمركزه وقد نجح فيما

---

(١) سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص٢٨٠ـ دار النهضة ـ بيروت، ١٩٧٢ م٠

(٢) انظر : انطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية : ص ١٩ ـ دار الحداثة ـ بيروت، لبنان، ١٩٨٠ م٠

(٣) الدولة المملوكية : ص ١٩ ٠

اراد فخلع الناصر محمد وتسلطن مكانه ٠ [١]

ولما ولى السلطنة المنصور محمد بن خاجي سنة ١٣٦١هـ، سيطر على الامور الامير يلبغا ولم يبق للسلطان الا الاسم ٠ [٢]

وعندما صار برقوق العثماني اتابكا للعسكر في عهد السلطان الصالح حاجي ، حكم البلاد بالاشتراك مع الامير بركة الجوباني ٠ لكنه استطاع فيما بعد القضاء على بركة والتفرد بالحكم ، فلم يكن حاجي اكثر من رمز تخلص برقوق من خلاله من اعدائه [٣]، وعندما شعر برقوق بملاءمة الفرصة لاعتلاء العرش وعلم القضاة والامراء والخليفة ان البلاد بحالة خطرة بسبب الغش وفساد العربان في الارض وخطر نواب الشام ، وان البلاد بحاجة الى سلطان قوى يدير الشؤون بحكمة ودراية ، فخلع الحاضرون السلطان حاجي وعينوا برقوق بدلا منه ٠ [٤]

وكان السلطان في الدولة المملوكية عندما يعتلي العرش يقوم بثلاث عمليات هامة هي :ـ

١٠ تشتيت الامراء المعادين له عن طريق القتل او السجن او النفي ونزع الامارة عن بعضهم ثم تشتيت الفرق المؤازرة لهم قتلا او نفيا او اغراقا في النيل ٠ [٥]

٢٠ تقريب الانصار وترقيتهم واغداق الاموال عليهم واعطائهم الاقطاعات ٠

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ٠ جـ١، ص٣٢٤ ٠

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الموك جـ٣، ق١، ص٩٥، القاهرة ١٩٧٣م٠

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك : جـ٣، ق١، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ٠

(٤) المصدر نفسه ، جـ٣، ق٢، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ ٠

(٥) بدائع الزهور : جـ١، ص ٣٢٢ـ ٣٢٣ ٠

٣٠ اقرار البعض منهم في مناصبهم ،كما فعل برقوق الذى أقر الامير جركس الخليلي بوظيفته آمير اخور كبير (١) ، وكذلك شيخ المحمودى الذى اقر الامير طوغان دوادار اعلى عادته والامير شاهين الأفرم امير سلاح (٢) ٠

ان هذه العلاقات بين السلطان وامرائه واجناده تدفعنا الى الوقوف على انواع الاجناد في العصر المملوكي وما لعبه كل فريق ، وعلى الرغم من ان سلطان المماليك كان يتمتع بالصلاحية الواسعة وبخاصة في تعيين الامراء وتوزيع الاقطاعات ٠ فانه كان يستشير كبار رجال الدولة في الامور الهامة مثل اعلان الحرب او عقد اتفاقات السلم ٠ ولهذا وجد في الدولة المملوكية مجلس الشورى الذى كان يعقد برئاسة السلطان وعضوية اتابك العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الاربعة وامراء المئين وعددهم ٢٤ اميرا ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان دعوة المجلس كان متروكا لرغبة السلطات ومشيئته (٣) ٠

---

(١) ابراهيم علي الطرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص١٤ القاهرة ١٩٦٠

(٢) المقريزى : السلوك : ح٤، ق١، ص٢٤٥ ٠

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف المماليك : ص١٠٦ ـ صبح الاعشى ح٤،ص١٦ـ١٧٠

الادارة :ـ

كان الحكم في الدولة المملوكية لا مركزيا، حيث حل النواب مكان السلطان في نيابتهم ونفذوا رغباته في كثير من الاحيان • ومن هنا فقد توزعت الوظائف في جميع انحاء السلطنة ولم تكن محصورة في القاهرة •(1)

كان يساعد السلطان في الدولة المملوكية في تسيير شوون الدولة واداراتها عدد من كبار الموظفين هم :ـ

أ • **نواب السلطان** : وكان هؤلاء في مناطق مختلفة من الدولة • فقد كان نائب للسلطان في القاهرة • ويعتبر الساعد الايمن في تصريف شؤون الدولة يشارك السلطان في توزيع الاقطاعات ومنح الالقاب كما كان للسلطان نواب في كل من دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك وكان اعلاهم مرتبة نائب دمشق الذى كان يطلق عليه نائب الشام•(2)

ب • **الوزير** : وكان نفوذه قد تضاءل بسبب وجود نائب السلطان بحيث لم تتجاوز مهامه تنفيذ اوامر السلطان ونائبه والاشراف على شؤون الدولة المالية •

حـ • **الاتابك** : وهو القائد العام للجيش • وكان يتمتع بنفوذ كبير في الدولة وقد تولى الاشراف على الادارة المحلية في المدن والاقليم عدد من الولاة كان يتم اختيارهم من بين الامراء • وقد عين لمدينة الاسكندرية نائب سلطنة ٧٦٧هـ/١٢٦٥م • ولعل الخطر الصليبي في تلك السنة كان له اثر في هذا التعيين •

وكان يشرف على القاهرة والي يشبه منصب محافظ القاهرة في هذه الايام وعين في الوجه القبلي والبحرى ولاة عددهم ثمانية في الوجه القبلي وعشرة في الوجه البحرى • وفي زمن المماليك الجراكسة كان لكل من الوجهين نائب يشرف على الولاة والعمال الذين يديرون شؤون الوجه التابع له •(3)

(1) الدولة المملوكية ، ص٦٧ •

(2) صبح الاعشى: حـ٤، ص١٦ ـ ١٧، مصر والشام ، ص٢٨٢ •

(3) صبح الاعشى : حـ٤، ص١٥ •

وقد اعتمد المماليك في ادارة الدولة على عدد من الدواوين التي اشرف عليها عـــدد كبير من الموظفين واهم هذه الدواوين :

أ • ديوان الجيش

ومهمته الاشراف على طوائف الجند وتوزيع الاقطاعات •وكان على رأس هذا الديوان ناظر على درجة من الكفاية يساعده عدد من كبار الموظفين منهم : صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر عند غيابه • ومنهم مستوفي الجيش ومهمتة تحديد مرتبات الجنـــد وحفظ بيان بها في سجلاتة • وكان يصرف هذه المرتبات موظف يطلق علية مستوفـي الرزق واختير لمساعدة هؤلاء مجموعة من الكتاب والشهود من ذوى الخبره (١) •

ب • ديوان الأنشاء :

ووظيفته تسليم الرسائل الوارده من السلطان وتوصيلها اليه واعداد الرد عليهـا وكان هذه الديوان يتبع ادارة البريد التي كانت ادارة ضخمة تولت شؤون البريد البـرى والجـوى • (٢)

جـ• ديوان النظر :

وكان يقوم بمراقبة ميزانية الدولة والاشراف على ايراداتها ومرتبات الموظفيـن والتي كانت بعضها نقدا وبعضها عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع • (٣)

د • ديوان الأحباس :

ومهمتة الاشراف على ادارة شؤون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجـد ومدارس وزوايا ،كما يشرف على الأرض والعقارات المحبوس عليها •

(١) صبح الاعشى : ج٤، ص١٥ •

(٢) صبح الأعشى : ج١ : ص١١٥ ، ج٤ ص١٠٤ •

(٣) عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ، ص٣٥٢ •

واما بالنسبة للقضاء فقد اهتم بـه المماليك كثيرا ، واكثر ما كان ذلك في زمـن الظاهر بيبرس ٦٦٥هـ/١٢٦٥م الذى عين اربعـة من قضاة القضاه على المذاهب الأربعـة بعـد ان كان من قبل يُعين قاضي قضاه واحـد ٠ هـو الشافعـي ٠ (١)

وقد امتدت اختصاصاتهـم الى مختلف القضايا المدنية والجنائية ،وكانت جلسـات المحاكم تعقـد في المساجـد او فـي دور القضاء ٠

ومن المحاكم في ذلك العصر محكمة المظالم تعقد في دار العدل برئاسة السلطـان ووظيفتهـا في النظر في القضايا التي اختص بها او ترفع اليـه ،كتلك التي كانت تقـع بين الحكام والمحكوميـن ٠

اما قضاة العسكر فكانو يختصون بأمور الجنـد دون غيرهم ،كما كانوا ينظرون فـي القضايا الناشبة بين العسكر والمدنيين ٠ وكان قضاة العسكر يصحبون السلطان فـي اسفاره ٠ (٢)

---

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٥٣٨ـ ٥٣٩٠

(٢) صبح الاعشى : ح ٤ ص ٣٦ ٠

الجيـــــش :ـ

توصف الدولة المملوكية بأنها دولة اقطاعية حربية ذلك ان طبيعة المماليك وتظامهم والرغبة في اقتناشهم جاءت من فكرة رئيسية هي ايجاد فئة من المقاتلين الاشداء، واعدادهم ليكونوا قادرين على حماية اسيادهم من سلاطين المماليك الذين تعهدوهم بالرعاية والاعداد ٠(١)

فقد كان سلاطين المماليك يعملون على تدريب مماليكهم على فنون الحرب واعدادهم الاعداد اللازم من الرمي بالنشاب الى اللعب بالرماح الى ركوب الخيل ومختلف انواع الفروسية ٠(٢) وكان المملوك اثناء خدمته العسكرية يتدرج بالترقيات رتبة بعد اخرى الى ان يصير من الامراء ٠(٣)

وكان المملوك المجند يتقاضى في بداية امره مصروفا " جامكية " يبدأ من ثلاثة دنانير الى خمسة ويصل الى سبعة عشرة، وينقل بعدها من الجامكية الى الاقطاعات ثم امرة العشرات ثم الطبلخانات وبعضهم ينقل الى تقدمة الالوف وامرة المئين ٠ وفي مرحلة كونه مملوكا كان اقطاعه يتراوح بين زمام نصف قرية وزمام قرية ، وبعد ان يصير اميرا يرتفع اقطاعه بين قرية وعشر قرى ٠(٤)

كان الجيش المملوكي يتألف من ثلاث فرق رئيسية هي :ـ

طائفة المماليك السلطانية ، وطائفة مماليك الامراء ، وطائفة اجناد الحلقة ، وكانت هذه الفرق متفاوتة في درجة علاقاتها مع السلطان تبعا لتعدد انتمائها وولائها ٠

١٠ المماليك السلطانية :ـ

وهم مماليك السلطان ، وقد وصفهم القلقشندى بأنهم " اعظم الاجناد شأنا وارفعهم قدرا واشدهم قربا واوفرهم اقطاعا ومنهم تومر الامراء رتبة بعد رتبة "(٥)

---

(١) عاشور،مصر والشام ، ص٢٨٤ ٠

(٢) المقريزى : السلوك ،حـ٢، ص٥٢٤، مصروالشام. ص٢٨٤ ٠

(٣) خطط المقريزى : حـ٣، ص٣٤٧ ٠

(٤) صبح الاعشى : حـ٤، ص٥٠ ٠

(٥) صبح الاعشى : حـ٤، ص١٥ ٠

وكانوا فرقة واحدة مكونة من عدة فئات هي الخاصكية والمشتروات والسيفية والقرانيص فالخاصكية هم المماليك الذين كانوا يلازمون السلطان ويقومون بالمهمات التشريعية ٠ من تنفيذ احكام الاعدام بالامراء او القبض على اعداء السلطان ٠ [1] وكانوا من امراء العشروات واشغلوا مناصب عسكرية هامة في الدولة ،كما عينوا احيانا عيونا للسلطان في النيابات بحيث اشغلوا مناصب نواب القلاع فيها ٠ [2]

وكثيرا ما تدخلوا بالشؤون الداخلية للدولة وبخاصة في صراع السلطان مع الامراء ٠ [3] ٠ وفي بعض الاحيان كان الخاصكية يتمردون على السلطان المملوكي ويرفضون الاستجابة له فيضطر السلطان القبول بذلك مرغما ومثال ذلك انه في سنة ١٤٠٣ اصدر السلطان فرج مناشير الى بعض الخاصكية بالتوجه الى بلاد الشام فرفضوا ذلك وفتكوا برسل السلطان ورغم ان السلطان حاول استرضاءهم الا انهم اشترطوا عليه تسليم زعمائهم من الامراء الذين كانوا وراء هذه الخطة فأجابهم الى طلبهم ٠ [4] ٠ اما القرانيص فهم مماليك السلاطين السابقين ٠ [5] وكانوا من اشد المماليك خطرا وشوكة لانهم كانوا يشكلون في بداية عهد السلطان الجديد القوة الحقيقية له ٠ ويستأثرون بالسلطة ٠

وكانت لهؤلاء سجلات خاصة بهم بديوان الجيش وتصرف لهم الرواتب ولكن منزلتهم لم تبلغ درجة المماليك السلطانية ٠

---

(١) خطط المقريزى : حـ٣، ص٢١٤ ٠
(٢) الظاهرى : زبدة الكشف ص ١١٥ ـ الدولة المملوكية ص ٢١ ٠
(٣) انظر ذلك في السلوك حـ٣، ق ٢، ص ٩٨٢ ٠
(٤) السلوك ، حـ٤، ق ٢، ص ١٠٦٠ ـ الدولة المملوكية ص ٣٢ ٠
(٥) زبدة الكشف : ص١١٥ ـ ١١٦ ـ الدولة المملوكية ص ٣٢ ٠

وهم لم يكونوا فرقة عسكرية واحدة لانتساب كل فرقة منهم الى السلطان الذى اعتقهم ورغم عدائهم فيما بينهم فقد كان يجمعهم قاسم مشترك هو عداؤهم للاجلاب [١] ولكثرة تحويل الاجلاب المشتروات الى قرانيص اشتدت الصراعات بين القرانيض والاجلاب منذ اواخر الدولة المملوكية الاولى وتميز القرانيض بشكل عام عن غيرهم ، فكان الواحد منهم يعتبر برتبته امير خمسة . وعرفوا بمهارتهم القتالية كما كانوا من اصحاب الاقطاعات [٢].

اما السيفية : فكانوا مماليك الامراء الذين توفوا اوقتلوا او سجنوا واسقطت عنهم الامارة [٣]، وهم يشبهون القرانيص من حيث التركيب لتعدد انتماءاتهم . ويعتبرون ادنى درجات المماليك السلطانية وكان الاجلاب رقيق يبيعه تجار خاصين للسلاطين او يجلبه التجار الاجانب فيسكنهم السلطان في الطباق ويعهد لمن يقوم على تربيتهم، وكان تعليمهم في مساكن الطباق يشبه المدارس الدينية للاحداث ، فاذا ما كبروا نقلوا الى مدارس حربية . فكانت عناية سلاطين المماليك فائقة بتربية الاجلاب ، فتولى شؤونهم جماعة عرفوا بمقدمي المماليك والطواشية حيث بلغ عددهم ستماية طواش وعدد المقدمين خمسين مقدما . [٤]

وكان ترتيب المشرفين على الطباقن كالتالي : مقدم المماليك ، مقدم الطباق ، ونائب مقدم الطباق والطواشية والسواقون والبوابون . [٥] ورغم ان

---

(١) الدولة المملوكية : ص ٣٢ .

(٢) الدولة المملوكية : ص ٣٣

(٣) زبدة الكشف ، ص ١١٥ .

(٤) الباز العريني : المماليك ص ١١٧ ـ الدولة المملوكية ص ٣٤ .

(٥) السواقين : مهمتهم حفظ الامن ، بينما البوابون مهمتهم السهر على ابواب الطباق (زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ ـ الدولة المملوكية ص ٣٤) .

مقدمي المماليك كانوا يعرفون بالورع والصرامة والانضباط الا انهم اهملوا واجباتهم منذ القرن الرابع عشر الميلادي مما ادى الى فساد الاجلاب (١) ، وكان السلطان المملوكي يعتقهم من الرق بعد ان يتم المماليك تربيتهم في الطباق وينعم عليهم بالخيل والقماش والسلاح بالاضافة الى الجامكية والاقطاعات فكان بعضهم ينال الجامكية وبعضهم ينال الجامكية والاقطاع معا (٢) .

ومن فئات المماليك السلطانية فئة تعرف (بالجلبان) فالوافدية او ما يعرف بهجرات الجلبان الكبار وترجع الى عهد الدولة المملوكية الاولى وبالتحديد الى عهد السلطان كتبغا سنة ١٣٩٤هـ. (٣) بحيث هاجر جماعة عرفوا بالاوبراتية اثر تولي غازان زعامة المغول مخافة الفتك بهم . فدخلوا الشام ثم دخلوا مصر . (٤) وزادت هذه الهجرات بحيث الحقت الضرر بالدولة المملوكية بسبب هجرة عائلات بأسرها بعد ان تكون قد تاصلت في افرادها طباع واخلاق بلادهم . والجلبان لم يتمكنوا من الانضباط تحت لواء اي امير بالرغم من كثرة اسلحتهم ولعل ذلك يعود الى قلة تدريبهم وسوء استعمالهم للاسلحة وقلة درايتهم بالحرب . وعمرهم في الحروب ادى بهم الى كرهها .

وقد تميز الجلبان بصورة عامة بالغضب والفجور وقلة المسؤولية مما ادى الى اضطراب الدولة عسكريا واجتماعيا واقتصاديا .

لقد انطوى هذا التقسيم للمماليك السلطانية على التمييز وحمل بذور الفساد ونشر الاحقاد الضغينة بين افراد الفرق المملوكية ، فكان السلطان

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، خ٢، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٢) صبح الاعشى :ح٤، ص١١ ، ١٥ ـ السلوك ، ح٤، ق١، ص٤٦ ـ زبدة الكشف،ص١٢٥ـ بدائع الزهور ، ح٢، ص١٣ ـ ١٦ .

(٣) انظر خطط المقريزي ، ح٢، ص٢٢ ـ الدولة المملوكية ص٣٦.

(٤) الاوبراتية من الشعوب المغولية انصار طرغاى بن هولاكو (خطط المقريزي ح٢،ص ٢٢).

الجديد يعمل على استعداد اكبر عدد ممكن من المماليك ويهتم بتربيتهم ليصبحوا سندا له ٠

مما سبق يمكن القول ان المشتروات كانوا يشكلون في الحقيقة اعلى مرتبة بين الفرق المملوكية السلطانية ، وكثيرا ما كان السلطان الجديد يرقى مماليكه على حساب القرانيص ٠ ولعل مرد ذلك امران :-

١٠ ان كثيرا من السلاطين اعتلوا العرش عن طريق الثورة التي كانت تؤدى احيانا الى مقتل السلطان السابق ٠ وفي هذه الحالة كثيرة ما كان المماليك يفقدون الخطوة وسيتحدون على كل خارج عن السلطة ثأرا لاستاذهم ٠

٢٠ ان القرانيص تمتعوا بشكل عام بخبرة قتالية عالية وهو ما كان يعتبر خطرا على حياة السلطان الجديد ٠ ولهذا السبب ارسلهم الى الحروب في الاقاليم البعيدة في الاقاليم وبلاد الشام ٠

وقد شكلت الناحية المادية الرابط الاكثر قوة بين السلطان ومماليكه، وبخاصة الأجلاب منهم وبشكل رئيس في الدولة الجركسية ٠

وارتكز النظام العسكرى المملوكي اضافة الى الاسس العسكرية على التزامات مادية يقدمها السلطان للاجناد، والمماليك السلطانية كانوا احسن الأجناد حظا وبخاصة الاجلاب منهم ٠

وقد اوفى السلطان بهذه الالتزامات من ماله حينا ومن بيت المال حينا اخر فاستفاد المماليك السلطانية من الجامكية (١) وهي راتب شهرى ومن النفقة فضلا عن الخلع والهدايا ، وقد اختلفت الجامكية من عهد الى اخر

---

(١) النجوم الزاهرة : حـ١٤، ص ٧٠ ٠

حسب التلاعب بالنقد واهواء السلاطين وميولهم ، فقد رفعها السلطان برقوق من ثلاثة دنانير الى عشرة ، وبلغت قيمتها عهد برقوق عشرين الف دينار وعهد شيخ احد عشر الف دينار شهريا .(١)

وكان السلطان يقدم للماليك المواد الغذائية لهم ولدوابهم واحيانا يستعيض عنها بالمال .(٢) وقدم للخاصكية الشمع والحلوى في رمضان(٣)، كما كان يقدم الحلوى للماليك مرة في العام والارجح انها كانت مرتان صيفا وشتاء .(٤)

هذا الى جانب كثير من الهدايا والنفقات والهبات التي كان يمنحها السلطان لمماليكه كسبا لودهم ومساعدتهم على تجهيز انفسهم، فكانت على شكل حلوان او ترضية في مناسبات الاعياد او الخروج للحرب او غير ذلك .(٥)

وكانت علاقة المماليك السلطانية بالسلاطين علاقة مميزة منهم يختار الامراء وهم اصحاب الحظوة ، ورغم ذلك فقد كانوا مصدر الفتن في القاهرة نفسها ، ولعل ذلك راجع الى السلطان نفسه الذى كان يميز بين الفرق المملوكية ، وقد ساهمت سياسة السلاطين غير العادلة بين مماليكه في ظهور نزاعات بين فرق الجند .

وكانت ترفيع وترقيته للمملوك من اهم الروابط بين السلطان والجند .
وكانت دوافع الترقية متنوعة ، منها الدهاء والمكر ومنها رابطة الزمالة (الخشراشية) والتي كانت بمثابة اخوة التربية في الطباق بل تعتبر الى حد كبير حزبا سياسيا مبدأه التفاف افراد بعضهم على بعض ، ومنها ايضا الشجاعة والفروسية

---

(١) الدولة المملوكية : ص ٤١ .

(٢) صبح الاعشى حـ٤، ص٥٦ .

(٣) خطط المقريزى حـ٣، ص ٢٥٣ .

(٤) انظر صبح الاعشى ،حـ٤، ص٥٥، النجوم الزاهرة ، حـ٧، ص ٤٧٧ .

(٥) الدولـة المملوكية : ص ٤٢ .

والاقدام وكذلك اجتهاد ذوى النفوذ لدى السلطان او الاتابك الوصي على العرش ٠

وهكذا نلاحظ ان علاقة السلطان بمماليكه كانت الى حد كبير يسودها العداء مالم تعززها الدوافع المادية ٠ ومع ذلك فان باقي الفرقاء كانوا يناصبونه والفريق المقرب منه العداء ٠ مما كان يترتب عليه صراع مستمر بين فئات المماليك السلطانية ويضعف قوة الجيش على مر الايام ٠

وبالنسبة لعلاقة الجلبان بالسلطان والسكان والامراء ٠ فان هؤلاء عرفوا بحبهم للسلب واثارة الفتن لتحقيق مصالح خاصة بهم تتمثل بالمطالبة بالترقية والمال فكانوا يهاجمون السكان ويسلبون الاموال ويخطفون النساء ٠ (١) دون ان يراعوا حرمة ولا يهابون امراءهم ٠ ولعل ضعف ايمانهم دفعهم الى ذلك لعدم وجود وازع داخلي يردعهم ٠

ونتيجة للصراع بين المماليك سادت الكآبة البلاد وبخاصة الجلبان منهم فدمرت الاسواق مما جعل الحياة في القاهرة دائمة القلق ٠ (٢)

ولعل انصراف السلاطين والامراء الى الترف وبعدهم عن الاسلام وممارستهم الرذائل وممارستهم الفسق والفجور قد شجع المماليك على حذو اسيادهم ٠ وكان من اسباب ازدياد الفتن قضية وراثة العرش ٠ فكانت وراثة العرش مجالا لتنافس السلاطين والامراء وشاركهم في ذلك المماليك ٠

وبالرغم مما كان يحصل عليه المماليك من امتيازات من سلاطين فانهم شاركوا في الاضطرابات من اجل الحصول على المكاسب ولم ينفكوا عن العزوف عن المشاركة في الحروب ، وان اشتركوا فيها لجأوا الى نهب المدن التي

---

(١) الدولة المملوكية ، ص ٥٠ ٠

(٢) غاستون مينيت : القاهرة مدينة الفن والتجارة ، ص ١١١ ٠ بيروت، ١٩٦٨ ٠

ينزلونها فكان خروج المماليك على ارادة السلطان امرا مألوفا واسبابه كثيرا تتمثل في الرغبة في الحصول على المال او قلة النفقة او تأخر دفع الجامكية او محاولة السلطان منعهم من نهب الاسواق وتعديهم على اموال الناس ٠

اما اجناد الحلقة : فهم المماليك الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الامراء ٠ (١) وتكاثروا بمن انضم الى الجيش المملوكي من التتار والوافدية ٠ (٢)

وكان اجناد الحلقة يعتبرون قلب الجيش المملوكي ويذكر ان اجناد الحلقة كانوا يتألفون من اولاد الناس واولاد السلاطين ، بالاضافة الى العرب والاكراد والتركمان ٠ وكانوا يقسمون حسب ما يوكل اليهم من اعمال الى عدة اقسام

١٠ **البحرية** : وهم حرس السلطان في القلعة حيث كانوا ينامون في الدهاليز المحيطة بها ٠ (٣)

٢٠ **الشريفية** : وهم الذين كان يرسلهم السلطان في سفاراته ٠ (٤)

٣٠ مماليك الغيبة : وكان يعينهم السلطان في مراكز محددة ابان غيابه ٠

٤٠ **فرق تخدم في بيوت الامراء** ٠ (٥)

وقد نظم اجناد الحلقة في اوقات السلم والحرب ٠ فوضع على كل ٤٠ جندي منهم مقدم دون ان يكون له اى سلطة عليهم الا في اوقات الحرب ٠ (٦) وفي حالة

---

(١) الباز العريني : المماليك ، ص ١٦١ ٠

(٢) النجوم الزاهرة : حـ٨، ص ٤٢ ـ ٤٤ ٠

(٣) صبح الاعشى : حـ٣، ص١٥ ٠

(٤) الدولة المملوكية ، ص٥٨ ٠

(٥) الطرخان : مصر في عصر الجراكسة ص١٣٥ ـ الدولة المملوكية ص ٥٨ ٠

(٦) صبح الاعشى : حـ٣، ص ١٥ ٠

الحرب كان كل الف جندي يأتمر بأمرة امير مئة [1] ولكل مئة منهم في اوقات السلم نقيب او باش يأتمرون بأمره . [2]

وهكذا نرى ان مماليك السلطان واجناد الحلقة كانوا يشكلون عصب الجيش المملوكي ، فكان مماليك السلطان بما حصلوا عليه من امتيازات اصبحوا عماد الجيش وخلفوا اجناد الحلقة بهذا الدور . فقل اهتمام السلاطين بالحلقة مما افقد الجيش عنصرا من اهم مقومات قوته .

وكان يحيط بالسلطان جهاز عسكري من الامراء الكبار يقومون على خدمته ويشغل كل منهم منصبا عسكريا هاما وكان الامراء جميعا يمتلكون المماليك على غرار السلطان ، وكان الامراء على درجات متفاوتة من الاهمية واقتناء المماليك . وكان هؤلاء يقسمون من حيث الاهمية الى اربعة اقسام :-

أ . امراء مئة وتقدمة الف : وهم اعلى درجات الامراء ، يشغلون المناصب الهامة ومن بينهم كان ينتخب السلطان . [3]

ب . امراء الطبلخاناه .

جـ . امراء العشرة .

د . امراء الخمسة : وهؤلاء الامراء قلدوا السلاطين في اقتناء حرس خاص من المماليك ويتفاوت عدد مماليكهم حسب رتبهم ووظائفهم وثرواتهم [4] لم يكن عدد الامراء ثابتا فقد كان عددهم يزيد او ينقص تبعا لارادة السلطان وقوته ومدى حذره [5]

---

(1) صبح الاعشى : جـ٣، ص١٥ .

(2) المصدر نفسه ، جـ٣، ص١٥ .

(3) صبح الاعشى ، جـ٤، ص١٤ .

(4) نقولا زيادة : دمشق في عصر المماليك ص٢٤ - بيروت ١٩٦٦ م .

(5) انظر : صبح الاعشى : جـ٤، ص١٤ . - الدولة المملوكية ، ص٦٢ .

وكانت الوظيفة التي يشغلها الامير هي التي تحدد مستوى الامير العسكرى والاجتماعي وهذا ما جعل التسابق على الوظائف بين الامراء امرا مألوفا اتخذ طابع الصراع في كثير من الاحيان .

وكانت الوظائف المملوكية على نوعين :-

احدهما خدمة السلطان في القاهرة ، والثانية خدمته خارج القاهرة .

وكان السلاطين يحاولون كسب ود الامراء بعلاوات اضافية. وكانت النفقة من العلاوات التي حصل عليها الامراء والاجناد، وان هذه النفقة لم تكن ثابتة وانما تأثرت بعوامل عديدة منها اهتمام السلطان بالحرب او ميزانية الدولة او خوف السلطان من زوال ملكه.(١) ومن هذه العلاوات الانعام على الامراء بالخيول والحلوى والاضاحي والمراعي .

ويظهر ان جيوش المماليك كانت خليطا من الاجناس . ولكنها خلت من العناصر الشامية والمصرية سوى الفقهاء والمقرئين والصناع . فكان عمل اهل البلاد الاصليين على الوظائف المدنية والنواحي الاقتصادية(٢) والى جانب الفرق النظامية السالفة الذكر وجدت فرقة تسمى فرقة " اولاد الناس " افرادها من ابناء امراء المماليك فقط، ولم تكن تستدعي الا عند القتال . وكانوا يتناولون مرتبات سنوية او اقطاعات من الارض في ايام الحرب والسلم .

وكانت رواتب الجيوش جميعا اما نقودا او اقطاعا(٣) . وفي ايام الملك الصالح ايوب كانت جزيرة الروضة بالقاهرة المقر الرئيسي للجيش ، فلما تولى المعز ايبك السلطنة نقل جميع المماليك منها الى قلعة الجبل . الا ان الظاهر

---

(١) النجوم الزاهرة .حـ٩، ص١٦٦ ـ حـ١١، ص٢٦٠ ـ حـ١٢، ص١٩٨ .

(٢) العلاقات السياسية بين المماليك والمغول .ص١٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٧ .

بيبرس اعاد بناء قلعة الروضة وجعلها مقرا للامراء والجنود، وعندما جلس قلاوون على العرش عام ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م نقل المماليك من الروضة الى قلعة الجبل مرة ثانية ومنعهم من مغادرتها ليلا او نهارا ، واهتم بهم كثيرا فكانت القلعة معسكرا او مدينة خاصة بطوائف الجند والامراء ومع ذلك فلم تكن كل الجيوش تقيم هناك وانما كان بعضها يلحق بولاة الاقاليم يقيمون في قلاع وحصون ومعسكرات بجوار مقر الوالي ، وفيها كل ما يحتاج اليه الجندي من المون والذخيرة الحربية وما يلزم للطوارىء • وفي حالة الخروج للقتال كانوا يتخذون الخيام معسكرات لهم • (١)

وكانت اسلحة المماليك متنوعة منها السيوف والرماح والدروع المصنوعة من الزرد، وكان يطلق على مكان حفظ الاسلحة " السلاح خاناه" وفيه يقيم الصناع ومصلحي الاسلحة ، وكان صانع الاسلحة يعرف باسم " الزردكاش" بينما كان يعرف المشرف على دار السلاح باسم" السلاح دار" • " ولا يكون الا واحدا من الامراء المقدمين " • (٢)

اما مجلس الجيش فكان يجتمع برئاسة السلطان واتابك العساكر(٣) ويحضره الخليفة والقضاة وامراء المئين وهدفه التشاور ووضع خطة للقتال واخذ الفتوى بمشروعية القتال • وفي حالة الاتفاق كان الجند يتجمعون ويؤدون اليمين الولاء والطاعة وبعد توزيع الاسلحة عليهم كان يجرى استعراض القوات ويُعين لها قائدا من ذوى الخبرة والكفاءة • (٤)

---

(١) صبح الاعشى : جـ٤، ص ١١ ـ ١٢، ١٨ •

(٢) العلاقة السياسية بين المغول والمماليك ، ص١٨ •

(٣) مصر في العصور الوسطى : ص٣٥٧ ـ تاريخ المماليك البحرية ، ص٢٧٠ •

(٤) صبح الاعشى : جـ٤، ص٨ ـ تاريخ المماليك البحرية ، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤ •

يرافق الجيش في غالب الاحيان تشجيعا للجند للصبر على قتال العدو،[1] وكانت ترافق فرق الموسيقى والطبول بالاضافة الى الاعلام والرايات وفرق الاسعاف والتمريض لعلاج الجرحى والمرضى.[2]

وكان الاسرى من نصيب السلطان يأخذ ما يشاء ويأمر بتوزيع ما يبقى من النساء والغلمان على الامراء، اما بالنسبة للرجال من الاسرى فقد كان القادرون يدفعون الفدية عن انفسهم. واما من كانوا من العامة ولا يستطيعون دفع الفدية فكانوا يرسلون الى معتقلات خاصة او يوزعون على القواد والامراء وكثيرا ما كان بعضهم يستخدمون في بعض الاعمال كالبناء مثلا،[3] وغالبا ما كانت معاملة الاسرى حسنة عند المماليك، خلافا لما كانت عليها عند المغول.[4]

---

(١) مصر في العصور الوسطى: ص٣٥٧ - تاريخ المماليك البحرية: ص٢٧٠.

(٢) صبح الاعشى: ج٤، ص٨ - تاريخ المماليك البحرية: ص٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) الكامل في التاريخ: ج١٢، ص١٧٤ - حافظ احمد حمدى (الدولة الخوارزمية والمغول ص٢١٨ - القاهرة، ١٩٤٩م).

(٤) الصياد: المغول في التاريخ: ص٢٦٢.

الاقطـــــاع :ـ

رغم ان المماليك ورثوا الاقطاع عن الايوبيين الا انهم عدلوه ولم يجعلوه وراثيا • ويقصد بالاقطاع المملوكي هو ما يتحصل من الارض من غلّة او مال بالاضافة الى انتاجية بعض القطاعات التي تجرى عليها المكوس[1] • وبذلك خالف المماليك المفهوم الحقيقي للاقطاع في الاسلام حيث لم يجز الفقهاء اقطاع الضرائب[2] •

وفي العهد المملوكي قسمت الاراضي الى سبعة اقسام :ـ

١• قسم خاص بالديوان السلطاني ويشمل : ما يجرى في الديوان الخاص ، وما يجرى في الديوان المفرد ، وما يجرى في الوزارة •

٢• قسم أُقطع للاجناد والامراء

٣• قسم وقف على الجوامع والمدارس وغيرها •

٤• قسم عرف بالاحباس : اقطع الاناس يقومون على خدمة المساجد ويشغلون تلك الاراضي •

٥• قسم اصبح يشرى ويباع ويورث ويوهب لكونه اشترى من بيت المال •

٦• قسم لا يزرع للعجز عن زراعته ، وصار مراعي للمواشي •

٧• قسم لا نسقيه مياه النيل فهو مقفر •[3]

ويذكر القلقشندى : ان الاراضي كانت اقطاعات تجرى في الدواوين السلطانية واقطاعات للامراء والاجناد عدا قسم قليل كان وقفا على المؤسسات الدينية والعاملين بها ولا يعتد به لقلته ، واقطع قسم قليل

---

(١) الباز العريني : المماليك : ص١٦٨•

(٢) الدولة المملوكية : ص١٩٩•

(٣) خطط المقريزى : حـ١، ص١٩٧•

لبعض العرب والتركمان لقاء خدمات معينه ٠

وتتمثل الخدمات المذكورة بارسال الخيول الاصلية للسلطان في بداية كل عام ٠ وحماية الطرقات ، ومعاقبة قطاع الطرق ، وتقديم الفرسان للحرب ٠ وكان القيراط هو وحدة توزيع الاراضي في مصر ٠ حيث قسمت الاراضي هناك الى ٢٤ قيراطا : ٤ للسلطان ، و ١٠ للامراء ، والعشرة الباقية للاجناد ٠ (٢)

وكانت اجود الاراضي يتفرد بها السلطان وكبار امرائه ، ولمن اقل منهم مرتبة الاراضي المتوسطة الجودة ، في حين كانت الاراضي المتبقية تعطى لاجناد الحلقة ومن شملهم الاقطاع ٠ (٣)

وقد تجاوزت الاقطاعات المملوكية الاراضي الزراعية فشملت موارد الدولة بما في ذلك الضرائب والمعادن والمكوس ٠ فكان منها الضرائب الخراجية السنوية التي كانت توخذ على الاراضي المزروعة حبوبا واشجارا مثمرة ٠ اضافة الى هدايا الفلاحين مثل الحيوانات والطيور وغيرها ٠ ومنها ما كان يدفع شهريا وهي انواع المكوس كاجور المسقفات والضمان ، وربع البساتين ، ومصايد السمك والمواريث ودار الضرب والمراكب الى غير ذلك ٠ (٤) واشهر المكوس التي اقطعت ، مكس ساحل الغلة ومكس مقرر السجون ، ومقر الحوائص ، ومكس مقرر الفراريج ، ومكس نصف السمسرة ، ومكس رسوم الولاية ، ومكس الافراح ومكس ضمان المزر ومكس متوفر الجراريف ، ومقرر المشاعلية ٠ (٥) وبذلك تجاوز

---

(١) صبح الاعشى ، حـ٣، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨٠

(٢) النجوم الزاهرة : حـ٨، ص ٩٢٠

(٣) صبح الاعشى : حـ٨، ص ٤٥٨٠

(٤) انظر : النجوم الزاهرة ، حـ٩، ص ٤٦، ٥٠، خطط المقريزى : حـ١،ص ٨٩، حـ٨، ص ١٥٠، بدائع الزهور حـ١،ص ٢٣٠٠ (المزر : هو الخمر المستخرج من الذرة او الشعير٠ الفلة : ضريبة يدفعها بائع ومشترى الفلة ٠)٠

(٥) خطط المقريزى ، حـ١، ص ١٠٣ ـ ١٠٧ ٠

المماليك حدود الشرع واقطعوا المكوس والضرائب التي وجدت لتصرف لصالح المسلمين وغيرهم ·

وكان المستفيدون من الاقطاع : هم رجال السيف ورجال القلم والمتعلمين.

وتألف رجال السيف من السلطان وامرائه واجناده · فكان السلطان يختار من الاراضي اجودها ، كما حصل على دخل اخر من اقطاعات كان يشتريها من ماله الخاص وكانت مصادر دخله متعددة : مثل الضرائب العقارية وضرائب المحصولات الزراعية والاقطاعية ، والجمارك ، والمصانع والضرائب غير العادية على السلع التجارية والاسواق ومن زياراته للامراء الكبار في اقطاعاتهم ·

اما اقطاعات ومداخيل الامراء فقد تباينت تبعا للوظائف التي كانوا يشغلونها بالاضافة الى عامل اخر هو مقدار حظوتهم عند السلطان · ومع ذلك فلم تكن مداخيلهم تخضع لعرف او قانون ، فقد تأثرت بقوة السلطان ونفوذ الامير ودهائه وطموحه ورضا السلطان او غضبه عليه · (١)

هذا وان سياسة الاستمالة التي كان يسلكها بعض السلاطين لتقريب الامراء منهم خوفا من غدرهم كان يزيد في مساحات ومكوس اقطاعات الامراء (٢)

اما اقطاعات اجناد الحلقة فقد نالوا في بادية الدولة المملوكية نصيبا وافرا ثم تطور الاقطاع لصالح الامراء والمماليك السلطانية على حساب اجناد الحلقة فلحق الحيف بهم حيث اصبح المماليك السلطانية اكثر الاجناد حظوة عند السلطان ، كما كان بأس الامراء شديدا وطمعهم زائدا · (٣)

وهكذا تقاسم السلطان وامراؤه واجناده خيرات البلاد الاقطاعية وانتاج الارض وعائدات الضرائب المكوس ·

---

(١) انظر : الطرخان المنظم الاقطاعية ؛ ص ١٥٩ ـ النجوم الزاهرة حـ٨، ص ٨٠ـ٨١ ـ الدولة المملوكية ، ص ١١٣ ·

(٢) الباز العريني : المماليك : ص ١٧٣ ·

(٣) صبح الاعشى : حـ٤، ص ٥٠ ·

كان الاقطاع يشكل الدعامة الرئيسية للاقتصاد المملوكي لذلك فان السلاطين حرصوا على توزيعه بانفسهم واوجدوا ادارات اقطاعية تشرف على علاقة المقطع بالسلطان واستحدثوا ادارات جديدة لتخدم مآربهم مما جعل الادارة الاقطاعية عرضة للفساد حيث اصبحت تخدم الى جانب مصالح السلطان مصالح كبار الأمراء ٠

واهم هذه الادارات الاقطاعية :-

١٠ ديوان الجيش :

وكانت مهامه استلام الاوراق الخاصة بالاقطاعات ،وتدقيق مقادير الاقطاعات ، استيفاء الخراج عنها ٠ اى انه كان يراقب مردود الاقطاعات ، وكذلك كان من اختصاصه توزيع الاقطاعات التي كانت تمنح للأمراء الذين اعفوا من الخدمة العسكرية ٠ (١)

٢٠ ديوان الانشاء :

ومنه كانت تصدر المراسيم السلطانية مثل مناشير الاقطاعات للامراء والجند وهذه تصدر بناء على الوثائق الواردة من ديوان الجيش ٠ (٢)

٣٠ ديوان المرتجع :

ومهمته استرجاع الاقطاعات التي تخلى عنها اصحابها بسبب الوفاة او الحصول على اقطاع جديد ٠ وكان يقوم على ادارة هذه الاملاك المرتجعة ديوان الذخيرة حتى يقطعها السلطان لمن اراد مجددا ٠ (٣)

---

(١) صبح الاعشى : ح٤، ص ٢٥١ ، ح٦، ص١٨٥ ٠

(٢) زبدة كشف المسالك : ص١٠٠ ٠

(٣) بدائع الزهور ح٢، ص٢٧٧، ٣٠٥ ٠

٤٠ ديوان الاجناس :ـ

ومهمته ادارة اراضي الاحباس اى املاك الأوقاف الدينية التي كانت تتزايد باستمرار ٠

لقدكانت هذه المؤسسات تخدم جميع المقطعين ، وعندما اخذ السلاطين يستغلون هذه المؤسسات لصالحهم الخاص ،كان بعض الوزراء يقفون لهم بالمرصاد ٠ ولذلك كان هؤلاء الوزراء يتعرضون لغضب السلطان ومصادرة اموالهم واخذوا يستحدثون ادارات مالية خاصة بهم سخروها لتلبية طلباتهم فأضعفوا بذلك الوزارة ٠ (١)

ان هذا النظام الاقطاعي الذى وجد اساسا لمصلحة المقطعين ، وكانت المؤسسات التي نظمت فعالة صارمة ، ولكن الفساد تطرق اليها فأثر ذلك على الفلاح وارهقت كاهله وكان لفساد النظام الاقطاعي اسباب تمثلت بما يلي :ـ

١٠ عدم اهتمام المقطعين باستصلاح الاراضي وكان همهم الحصول على اعلى انتاجية دون لستخدام الاساليب اللازمة لذلك ٠

٢٠ عدم استقرار الاقطاع بأيدى اصحابه ، مما دفع الاقطاعيين الى عدم الاقامة في اقطاعاتهم وانابة مندوبين عنهم لرعاية املاكهم ٠ فكان هؤلاء النواب يظلمون الفلاحين ٠

٣٠ تفتيت الاقطاعات، وذلك بتوزيعها على مساحات متباعدة مما جعل الاهتمام بالاقطاع غير ناجح

---

(١) الدولة المملوكية ،ص١٢٥٠

٤٠ضعف اجناد الحلقة منذ منتصف القرن الرابع عشر : فعمد هؤلاء الى بيع اقطاعاتهم ٠

٥٠اهمال السلاطين لروك الاراضي مما ادى الى بوارها ، وتزايد عدم المساواة في الملكية الاقطاعية ٠

٦٠كثرة انتشار الاوبئة ٠

٧٠تزايد مطامع الامراء وميلهم المستمر للصراع للحصول على مراكز افضل ٠

٨٠الحروب الخارجية وبذخ المقطعين ٠

٩٠ان هذه العوامل جميعا ادت الى انهاك المزارعين والى اهمال الاراضي ، كما اخذ المسؤولون يفرضون على اهل القرية مسؤولية مشتركة فيما يترتب على الفلاحين من اموال ٠

١٠٠ الكوارث الطبيعية : حيث كانت تساهم في انحطاط النظام الاقطاعي ٠

لقد كانت الدولة المملوكية دولة اقطاعية بيروقطراطية وعندما تعرضت للفساد كان الاقطاع والادارة والمرافق الاقتصادية اكثر تأثرا ٠ فالنظام الاقتصادى المملوكي كان وثيق الصلة بالجيش الذى نظم تنظيما حربيا اقتصاديا الى جانب وظيفته الامنية ٠ وفي الوقت الذى كانت فيه الدولة تتعرض للعجز المالي الناجم عن انحطاط الزراعة فانها كانت تفرض الضرائب على التجار وكانت هذه الضرائب تزداد كلما ازداد الاقطاع ضعفا ٠ كما فرضت الضرائب على الصناعة ، واخذت تزاحم الصناعيين في انتاج بعض السلع الهامة المطلوبة في الاسواق المحلية والخارجية مما عكس اثاراً سيئة على الاقتصاد المملوكي ٠ (١)

---

(١) انظر : الدولة المملوكية : ص١٥١ ، ١٥٢ ٠

العمـــران :-

شهد العصر المملوكي انتاجا باهرا في فن العمارة وهندسة البناء باسلوب لم يعرفه تاريخ مصر منذ ايام الفراعنة • وبلغ فن العمارة ابهى مظاهره في العمائر التي تزدان بها القاهرة من مساجد ومدارس واضرحة وحمامات وبيمارستانات وغيرها على الذوق الجميل والرغبة في الابداع والتفنن (١)

وخير مثال على روعة فن العمارة جامع السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون • ففي روعة تصميمه وعظمة قبته وفخامة ابوابه وايواناته العالية ودقة زخارفة دليل واضح على مدى تقدم فن العمارة في العصر المملوكي • (٢)

ولمعت الحقبة البرجية بالابنية التي شادها برقوق وقايتباى والغورى• مثل مدفن برقوق ومدفن قايتباى بالصحراء الشرقية بالقاهرة، ومجمع قلاوون الذي يضم قبة ومدرسة وبيمارستان وقصر قوصون وراء مدرسة السلطان الناصر حسن وغيرها من بقايا واثار ذلك العصر •

وتتميز العمارة في العصر المملوكي بالاهتمام بواجهات المساجد وجمال ماذنها وزخرفة ارضيتها وبالسقوف المذهبة • (٣)

وقد تأثر فن العمارة المملوكي بالاصول النورية والايوبية ،كما تأثر بالفن السورى والعراقي عندما كانت مصر مأوى للفنانين والصناع المسلمين الوافدين اليها من العراق والشام قبل الغزو المغولي وعندما انتهت الحروب الصليبية تمهدت الطريق للحصول على حجارة البناء من مواطنها في الشمال واستخدمت بدلا من الاجر في بناء الماذن ومهر البناؤون في تشييد الجوامع

---

(١) عاشور، مصر والشام : ص ٢٩٤•

(٢) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٧٣•

(٣) مصر والشام : ص ٢٩٥•

المدرسية بأشكالها المصلبة وظهرت القبب المميزة بخفتها وطرافتها واناقتها وزخرفتها. وظهرت في هذا العصر المتدليات السقفية (المقرنصات) • وتميزت الزخرفة الاسلامية انذاك بالاشكال الهندسية والحروف الكوفية. ويقول حتي:[1] " ان افضل نماذج العمارات الراجعة الى عصر المماليك باقية لحسن الحظ حتى اليوم وهي من امتع المشاهد التي يقصدها السياح وطلاب العلم " •

وكانت فروع الفن العملي ترتبط بفن العمارة ولا سيما العمارة الدينية ومن امثلة ذلك : ابواب جوامع مضنوعة من البرونز المزوق • وغلافات ذهبية للمصاحف مرصعة بالجواهر وشماعد برونزية عليها رسوم عربية ومحاريب فيها بديع الفسيفساء ،كما ان دقة الصناعة الخشبية تظهر في العديد من المنابر •[2] وكانت ابواب المساجد الرئيسية تغطي بالمعدن ، وتصنع قناديل المساجد والشبابيك المصبوغة من افضل انواع الزجاج الملون الموردة برسوم الازهار • كما كانت جدران المساجد تحلى من الداخل بالاجر المطلي، فالماذن بجامع الناصر بالقلعة من الفخار الملون الصقيل المستخدم في البناء[3] وكذلك عرفت صناعة الترصيع ومثالها ما هو موجود على الابواب والمنابر في جامع قايتباى • وازدهرت صناعة الشبكيات او المشربيات الخاصة بالنوافذ وواجهات البيوت • وكانت من الخشب المخروط[4] ، وابدع فنانو المماليك اشكالا من المراوح النخلية ووحدات من الزخارف البنائية ، كما انتشرت التزيينات الهندسية المؤلفة من حشوات صغيرة تتكون من اشكال سداسية

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ، حـ٢، ص٨١٧ •

(٢) مصر والشام : ص٢٩٥ ـ حتي : تاريخ العرب ، حـ٢، ص٨١٧ •

(٣) حتي : تاريخ العرب : حـ٢، ص٨١٧ •

(٤) مصر والشام : ص٢٩٥•

الاضلاع تنتظم حول شكل نجمي في الوسط [1] ، وتحوى المتاحف العالمية مصنوعات عاجية تعود الى عصر المماليك اقتصرت الزخرفة فيها على الاشكال النباتية الهندسية ، وكان العاج قد استخدم في الترصيع وبخاصة حشوات المقابر وفي قطع الاثاث [2] ٠

وبلغت صناعة المعادن درجة كبيرة من الاتقان ، فامتازت تحفها بطابع خاص يميزها عن غيرها ، فجمعت بين الزخارف البنائية التقليدية وزخارف جديدة استخدمت في ذلك العصر مثل رسم ازواج من الطيور مرتبة داخل معينات وشاع استخدام الموضوعات البشرية والحيوانية والنباتية الى جانب الكتابة على الاواني الزجاجية [3] ٠

وكانت الاواني الخزفية المصنوعة في العصر المملوكي المرسومة زخارفة تحت طلاء شفاف ، كما كانت بعض الاواني تزينها الكتابة العربية على ارضية منتظمة ٠

وكان الفخار المطلي يستعمل في بيوت الامراء ٠ اما صناعة المنسوجات فكان تطريزها يمتاز بخطوطه المتعرجة ورسومها السائدة هي الاشكال المسننة والتفريعات المزهرة ذات الالوان المتباينة [4] ٠

---

(١) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص١٢٢ ٠

(٢) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، ص٥٠٤ ٠

(٣) فنون الاسلام : ص ٦٠١ ٠

(٤) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص٢٥٧ ـ مصر والشام ص ٢٩٨ ٠

الثقافة ، التعليم والتأليف (الحياة العلمية) :-

يمثل عصر المماليك فترة ازدهار الحركة العلمية ، وذلك بسبب ما اصاب العالم الاسلامي من نكسات على ايدى المغول في العراق والشام وعلى ايدى الصليبيين في الاندلس والشام ، خلال القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى • ففي تلك الفترة لم يجد العلماء في المشرق او المغرب مكانا يسوده الامن والاستقرار وتروق لهم فيه الحياة افضل من مصر التي اصبحت مركزا للدولة العباسية ، ومكانا اقام به العلماء والفضلاء • (١)

وقد كان للمماليك اثر كبير في ازدهار الحركة العلمية على الرغم من ان اصولهم غير عربية فقد اهتموا بالعلم ومجالسة ، فيذكر على سبيل المثال : ان الظاهر بيبرس كان مولعا بسماع التاريخ ، (٢) وحرص الغورى على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وكان يشارك شخصيا في المناظرات والمسائل العلمية التي تطرح للمناقشة في تلك المجالس • (٣)

ولم يقتصر تشجيع العلم والعلماء على السلاطين المماليك وانما ساهم في ذلك امراؤهم ، فقد اشتغل الكثير منهم باللغة العربية والتاريخ والفقه والحديث ، بل وعمل بعضهم في التدريس • (٤)

ومما يدل على تطور الحركة العلمية وازدهارها في عصر المماليك الثروة العلمية الهائلة التي وصلت من ذلك العصر ، وان كثرة المخطوطات التي ترجع الى عهد المماليك وبخاصة بمصر وتشمل جوانب المعرفة : الادب والتاريخ

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة : حـ٢ ص٨٦ ـ عاشور : مصر والشام ، ص٢٧٤ •

(٢) النجوم الزاهرة : حـ٧، ص١٨٢ •

(٣) انظر : عبد الوهاب عزام : مجالس الغورى : ص٤٩ ـ عاشور : مصر والشام، ص٢٧٤ •

(٤) عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، ص١٤٢ •

والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والزراعة والمعارف العامة ، لأبرز دليل على ازدهار الحياة العلمية انذاك .

هذا لضافة الى الكتب التي فقدت ولم تعرف الا اسماءها واسماء مؤلفيها . وقد عرف الكثير من شعراء العصر المملوكي كان اشهرهم البوصيرى المصرى صاحب " الكوكب الدرية في مدح خير البرية " المعروفة بالبردة المتوفي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م (١) . وكذلك سراج الدين الوراق وكان كثير النظم صحيح المعاني عارفا بالبديع وتوفي سنة ٦٩٥هـ. (٢)

ونبغ ابن نباتة المصرى في النظم والنثر وكذلك ابن ابي حجلة المتوفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧١م، وكان شهاب الدين العزازى المتوفي سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م قد اجاد في الموشحات وله ديوان في خمسة ابواب رغم انه كان تاجر قماش في قيسارية جركس القاهرة ، وقد امتاز شعره بالظرف وخفة الروح . (٣)

ومن شعراء العصر المملوكي ويرجعون الى اصل مماليكي على بن سودون البشغاوى المتوفي ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م وقانصوة الغورى السلطان المملوكي المتوفي سنة ٩١١هـ / ١٥١٦م، حيث كان له ديوان غير منشور . (٤)

واشهر من اشتغلوا بالنثر القلقشندى المتوفي سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م ، صاحب كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا ، وشمس الدين النواجي المتوفي سنة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٥م (٥) والف ابن منظور لسان العرب المعجم المشهور، (٦)

---

(١) حسن المحاضرة : حـ١، ص٢٤٥ ـ حـ٢، ص١٤٣ ـ عاشور : مصر والشام ، ص٢٧٥.

(٢) النجوم الزاهرة : حـ٨، ص٨٣ ـ الكتبي فوات الوفيات ، حـ٢، ص١٠٧ .

(٣) فوات الوفيات : حـ٢، ص٤٨.

(٤) عاشور : مصر والشام ، ص٢٧٥.

(٥) حسن المحاضرة : حـ١، ص٣٣١ .

(٦) فوات الوفيات : حـ٢، ص٢٦٥.

ومن الذين اشتغلوا باللغة وعلومها ابن هشام المصرى المتوفي سنة ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م ، والدماميني السكندرى المتوفي سنة ٨٢٧هـ ٠

وظهر في هذا العصر تطور كبير في ادب خيال الظل عنوانه (طيف الخيال في معرفة خيال الظل) وصفه محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي : وكان طبيبا مسلما وقد برز هذا في زمن بيبرس وكتابة المذكور هو المثال الوحيد المحفوظ في الشعر الروائي الذى خلفه الاسلام في العصور الوسطى وفي القرن الثاني عشر الميلادى استعملت الرحى تديرها ايد خفية على المسرح ٠

وفي مجال القصص تجدر الاشارة الى ان سيرتي عنتر وبيبرس التي كانت سلوى الجماهير ، قد وضعتا في شكلهما المعروف خلال عصر المماليك ٠ وتنافس المماليك في الالعاب والسباقات والرياضة والرماية والصيد والفروسية ٠ واتى وصف الفارس في قصة الف ليلة ليمثل المحارب المغوار كما عهده عصر المماليك ، وان عادات القوم واخلاقهم انما اخذت الحياة الاجتماعية التي الفها الكاتب في مصر ايام المماليك ٠ (١)

واشتهر في مجال التاريخ عدد من اصحاب السير مثل ابن عبد الظاهر (٦٩٢هـ / ١٢٩٣م) الذى الف في سيرة السلطان بيبرس وفي سيرة الاشرف خليل قلاوون ، وابن سيد الناس (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٤م) والقسطلاني (ت ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م) وغيرهم كثيرون ٠ (٢) ومن اشهر من الف في الطبقات في هذا العصر : ابن خلكان الذى وضع كتاب وفيات الاعيان ، والادفوي مؤلف كتاب الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد، وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ /١٤٤٨م) واضع كتاب الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، وشمس الدين

---

(١) حتي : تاريخ العرب ، حـ٢، ص٨١٥ ٠

(٢) جرجي زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية ، حـ٣ ، ص ١٧٠ ـ عاشور : مصر والشام، ص ٢٧٦ ٠

السخاوى وكتابه الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع ، والسبكي مؤلف كتاب طبقات الشافعية . (١)

ومن المؤرخين الذين الفوا عن البلدان او عن دول بعينها جمال الدين بن واصل (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م) صاحب كتاب : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب وابن لقمان (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م) مولف كتاب " نزهة الانام وكتاب الانتصار بواسطة عقد الامصار ، وتقي الدين المقريزى (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) مولف كتاب السلوك وكتاب المواعظ والاعتبار (خطط المقريزى) وابو المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) صاحب كتاب النجوم الزاهرة والمنهل الصافي وبدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) الذى وضع كتاب عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان . (٢)

وفي الجغرافيا والسياسة والادارة : برز شرف الدين بن الجيعان (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) صاحب كتاب التحفة السنية في اسماء البلاد المصرية ، ونجم الدين احمد بن الرمغة المصرى الشافعي (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م) صاحب كتاب (بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الامور وسائر الرعية) (٣). ومنهم ايضا الحسن بن عبد الله العباس الذى وضع كتاب اثار الاول في تدبير الاولى . ويحوى كثير من الفوائد السياسية والاجتماعية والادارية . (٤)

ووضعت في هذا العصر موسوعات عديدة ضمت الواحدة منها معلومات كثيرة ومتباينة اشهرها : صبح الاعشى في صناعة الانشا للقلقشندى ، كتاب

---

(١) حسن المحاضرة :حـ١، ص٢٠٦ ـ عاشور : مصر الشام في العصر المملوكي ،ص ٢٧٦.

(٢) انظر : شزرات الذهب :حـ٧،ص ٨٠ ـ محمد مصطفى زيادة : المؤرخون المصريون في القرن التاسع الهجرى .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ،حـ٥،ص ١٧٧ ،

(٤) عاشور : مصر والشام،ض ٢٧٨.

نهاية الارب في فنون الادب للنويرى • وموسوعة مسالك الابصار في مجال الهندسة والنجوم والفلك ، وعلم الحيوان الزراعة ، ومن اشهر من كتب في هذا المجال . كمال الدين الدمير (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) مؤلف كتاب حياة الحيوان الكبرى • وهو ذا قيمة تاريخية وعلمية هامة •

وكذلك شهاب الدين بن طيف القاهرى (ت ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) [(١)] وممن كتب في الفقه : خليل بن اسحق المالكي المصرى (ت ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م)، وتقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) ، تاج الدين بن عطاء الاسكندرى وغيرهم الكثير •

وفي مجال علم اللاهوت اشتهر تقي احمد بن تيمية (١٢٦٢ ـ ١٣٢٨م) الحراني الذى كان يقيم في دمشق • وكان محافظا مرجعه القران والسنة وحارب البدع • من رجال الحديث المشهورين في هذا العصر ابن حجر العسقلاني •

والى جانب الاهتمام بالتأليف في هذا العصر فقد كانت العناية كبيرة بالمؤسسات التعليمية ، فأنشئت المدارس التي كانت بمنزلة معاهد التعليم العالي وتشبه الجامعات في وقتنا الحاضر ، يدرس فيها ذوو المكانة العلمية وكانت تحوى مكتبات كبيرة ويقصدها الطلاب لتلقي العلم والمعرفة • [(٢)]

ومن اشهر هذه المدارس : المدرسة الظاهرية التي انشأها الظاهر بيبرس والمدرسة الناصرية نسبة الى الناصر محمد بن قلاوون • [(٣)]

وكانت المكاتب بمثابة مدارس ابتدائية ، ولعل الهدف منها انذاك كان تعليم اليتامى الامر الذى دفع اهل الخير الى انشاء المزيد منها طلبا

---

(١) حسن المحاضرة : حـ١، ص ٢٠٧ ـ عاشور : مصر والشام ، ص ٢٧٩•

(٢) صبح الاعشى : حـ١، ص ٤٦٧، حـ١١، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •

(٣) عاشور : مصر والشام ، ص ٢٨٠•

للثواب وخصصت لها الاموال اللازمة للتعليم وتوفير المأكل والملبس والمسكن (١) ٠

كما خصص لها المؤدبون والعرفاء لتعليم الكتابة وقراءة القران وتحفيظه،

وكان يتم اختيار هؤلاء من اهل العقل والورع والاخلاق الحميدة والمتصفون

باللين والبعد عن القسوة والعنف ومن ذوي الشفقة والرحمة ٠ (٢)

---

(١) خطط المقريزى : حـ٣، ص ١٦٣٠

(٢) عاشور : مصر والشام ، ص ٢٨٠٠

الطب :-

ازدهر الطب في العصر المملوكي وكان الاطباء البارزين ابو الحسن علي ابن نفيس المتوفى سنة ١٢٨٨م، فقد كان عميدا للمارستان الذى بناه السلطان قلاوون ، والذى يشهد على اهتمام مصر بالطب انذاك وقد وضع ابن النفيس كتابه (شرح تشريح القانون) صور فيه الدورة الدموية الصغرى · واشتهر ايضا في الطب ابوبكر ابن المنذر البيطار المتوفي (١٣٤٠م) الذى قدم للسلطان الناصر ابن قلاوون رسالة في البيطرة عنوانها :
(كامل الصناعتين : البيطرة والزرطقة) · ومنهم عبد المومن الدمياطي (ت ١٣٠٦م) صاحب كتاب (فضل الخيل) وكان يقوم بالتدريس في المدرسة المنصورية التي بناها قلاوون ·

واهتم المسلون في هذا العصر ايضا بالطب الروحاني او النفساني، كما اهتموا بطب العيون ومن اشهر الكتب التي وضعت في هذا العصر، " الكافي في الكحلة) لخليفة ابن ابي المحاسن الحلبي · و " نور العين وجامع الفنون " لصلاح الدين بن يوسف الذى مارس طب العيون في حماه حوالي ١٢٩٦م·ولمع في بداية العصر الملوكي في مجال الطب موفق الدين ابو العباس احمد بن ابي اصيبعة ووضع كتابه المشهور " عيون الانباء في طبقات الاطباء " ·

- ابن العديم ، كمال الدين ابي القاسم عمر احمد (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) زبدة حلب ، حـ٢، ٣، تحقيق د٠ سامي الدهان٠ بيروت ، سنة ١٩٦٨٠
- العدوى ، د٠ ابراهيم احمد: العرب والمغول ٠ القاهرة : دار القلم سنة ١٩٦٢٠
- العريني ، سيد باز : المغول ٠ بيروت : دار النهضة ، سنة ١٩٨٨ ،
- المماليك ٠ بيروت : دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٧ ٠
- عبد الرؤوف ، عصام الدين : الدول المستقلة في الشرق٠ القاهرة : دار الفكر، سنة ١٩٧٠ ٠
- العبود ، نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ٠ بغداد : مطبعة جامعة بغداد، سنة ١٩٧٨٠
- غرايبة ، د٠ عبد الكريم : العرب والاتراك٠ دمشق : جامعة دمشق ، سنة ١٩٦٠
- ابو الفداء : اسماعيل بن علي عماد الله(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م٠ المختصر في اخبار البشر، ٤ اجزاء ، بيروت : دار المعرفة ، سنة ١٩٥٦ ٠
- ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) ـ البداية والنهاية٠ القاهرة : سنة ١٩٣٩٠ بيروت : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٧٧٠
- ابو المحاسن ، جمال الدين ابو المحاسن ابن تغرى بردى (ت٧٨٤هـ/ ١٤٧٠)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة٠ القاهرة : وزارة الثقافة
- مونس ، وحسين ، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ط٢، سنة ١٩٣٨٠
- مشكور، محمد جواد: السلاجقة في آسيا الصغرى ، طهران ، سنة ١٣٥٠هـ٠
- النبراوى ، د٠ فتحية : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى في العصور الوسطى٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، سنة ١٩٨٢ ٠
- النرشحي ، ابو بكر محمد بن جعفر (ت٣٤٨هـ/ ٩٥٩ م : تاريخ بخاري عربة عن الفارسية د٠ امين بدوى ، نصر الله الطرازى ، القاهرة : دار المعارف ١٩٦٥٠
- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم(ت٦٥٧هـ/ ١٢٩٧م) ـ مفرج الكروب في اخبار بني ايوب٠ تحقيق د٠ جمال الشيال ، القاهرة : سنة ٩٥٣هـ/١٢٣٩م)٠
- ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومي(ت٧٢٦هـ/ ١٢٣٩م) ـ معجم البلدان ٠ ـ بيروت : دار الكتاب العربي ، سنة ١٩٨٠٠

- ابن العديم ، كمال الدين ابي القاسم عمر احمد (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) زبدة حلب ، ح٢، ٣، تحقيق د٠ سامي الدهان٠ بيروت ، سنة ١٩٦٨٠
- العدوى ، د٠ ابراهيم احمد: العرب والمغول ٠ القاهرة : دار القلم سنة ١٩٦٢٠
- العريني ، سيد باز : المغول ٠ بيروت : دار النهضة ، سنة ١٩٨٨ ،
- المماليك ٠ بيروت : دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٧ ٠
- عبد الرؤوف ، عصام الدين : الدول المستقلة في الشرق٠ القاهرة : دار الفكر، سنة ١٩٧٠ ٠
- العبود ، نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ٠ بغداد : مطبعة جامعة بغداد، سنة ١٩٧٨٠
- غرايبة ، د٠ عبد الكريم : العرب والاتراك٠ دمشق : جامعة دمشق ، سنة ١٩٦٠
- ابو الفداء : اسماعيل بن علي عماد الله(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م٠ المختصر في اخبار البشر، ٤ اجزاء ، بيروت : دار المعرفة ، سنة ١٩٥٦ ٠
- ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) - البداية والنهاية٠ القاهرة : سنة ١٩٣٩٠ بيروت : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٧٧٠
- ابو المحاسن ، جمال الدين ابو المحاسن ابن تغرى بردى (ت٧٨٤هـ/ ١٤٧٠)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة٠ القاهرة : وزارة الثقافة
- مؤنس ، وحسين ، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ط٢، سنة ١٩٣٨٠
- مشكور، محمد جواد: السلاجقة في آسيا الصغرى ، طهران ، سنة ١٣٥٠هـ٠
- النبراوى ، د٠ فتحية : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى في العصور الوسطى٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، سنة ١٩٨٢ ٠
- النرشحي ، ابو بكر محمد بن جعفر (ت٣٤٨هـ/ ٩٥٩ م : تاريخ بخاري عربة عن الفارسية د٠ امين بدوى ، نصر الله الطرازى ، القاهرة : دار المعارف ١٩٦٥٠
- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم(ت٦٥٧هـ/ ١٢٩٧م) - مفرج الكروب في اخبار بني ايوب٠ تحقيق د٠ جمال الشيال ، القاهرة : سنة ٩٥٣هـ/١٢٣٩م)٠
- ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومي(ت٧٢٦هـ/ ١٢٣٩م) - معجم البلدان ٠ - بيروت : دار الكتاب العربي ، سنة ١٩٨٠٠

- - رافق ، د٠ عبد الكريم رافق : بلاد الشام من الفتح العثماني الى حملة نابليون دمشق ، جامعة دمشق ، ط٢، سنة ١٩٦٨٠
- السيوطي ، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (جزآن) ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة : دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٦٧٠
- شلبي ، د٠ احمد : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ط٧، سنة ١٩٨١٠
- شعبان،د٠ محمد عبد الحي : الدولة العباسية والفاطميون٠ بيروت : الاهلية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨١٠
- ابو شامة : عبد الرحمن اسماعيل٠ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق د٠ محمد حلمي احمد٠القاهرة: سنة ١٩٥٦٠
- ضومط، د٠ انطون خليل ـ الدولة المملوكة ، بيروت ـ دار الحداثة ، سنة ١٩٨٠ ،
- الصياد، فؤاد عبد المعطي ، المغول في التاريخ ، بيروت : دار النهضة العربية، سنة ١٩٧٠٠
- ابن طباطبا،محمد بن علي(ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) الفخرى في الآداب السلطانية٠ القاهرة، سنة ١٣٢٦هـ، بيروت : دار صادر ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٦م٠
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح٠ـالحركة الصليبية(مجلدان) القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ط٢، سنة ١٩٧١ ٠
  - الناصر صلاح الدين (سلسلة اعلام العرب عدد ٤١)٠ القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٦٥٠
  - تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى٠ بيروت: دار النهضة العربية سنة ١٩٧٢٠
  - مصر والشام في عصر المماليك والايوبيين ، بيروت : دار النهضة العربية ، سنة ١٩٧٢٠
- عاشور، د٠ فايز حماد: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية ،القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٩٧٥٠
- العبادى ،د٠ احمد مختار : قيام دولة المماليك الاولى في مصر، الاسكندرية، مؤسسة لشباب الجامعة ، سنة ١٩٦٨٠
  - في التاريخ العباسي والفاطمي ٠ بيروت: دار النهضة ، سنة ١٩٧٢٠

- ابن العديم ، كمال الدين ابي القاسم عمر احمد (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) زبدة حلب ، ح٢،٣، تحقيق د٠ سامي الدهان٠ بيروت ، سنة ١٩٦٨٠
- العدوى ، د٠ ابراهيم احمد:العرب والمغول ٠ القاهرة : دار القلم سنة ١٩٦٢٠
- العريني ، سيد باز : المغول ٠ بيروت : دار النهضة ، سنة ١٩٨٨ ،
  - المماليك ٠ بيروت : دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٧ ٠
- عبد الرؤوف ، عصام الدين : الدول المستقلة في الشرق٠ القاهرة : دار الفكر، سنة ١٩٧٠ ٠
- العبود ، نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ٠ بغداد : مطبعة جامعة بغداد، سنة ١٩٧٨٠
- غرايبة ، د٠ عبد الكريم : العرب والاتراك٠ دمشق : جامعة دمشق ، سنة ١٩٦٠
- ابو الفداء : اسماعيل بن علي عماد الله(ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م٠ المختصر في اخبار البشر، ٤ اجزاء ، بيروت : دار المعرفة ، سنة ١٩٥٦ ٠
- ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) - البداية والنهاية٠ القاهرة : سنة ١٩٣٩٠ بيروت : مكتبة المعارف ، سنة ١٩٧٧٠
- ابو المحاسن ، جمال الدين ابو المحاسن ابن تغرى بردى (ت٧٨٤هـ/ ١٤٧٠)
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة٠ القاهرة : وزارة الثقافة
- مؤنس ، وحسين ، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ط٢، سنة ١٩٣٨٠
- مشكور، محمد جواد: السلاجقة في آسيا الصغرى ، طهران ، سنة ١٣٥٠هـ٠
- النبراوى ، د٠ فتحية : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى في العصور الوسطى٠ القاهرة : مكتبة وهبة ، سنة ١٩٨٢ ٠
- النرشحي ، ابو بكر محمد بن جعفر (ت٣٤٨هـ/ ٩٥٩ م : تاريخ بخاري عربة عن الفارسية د٠ امين بدوى ، نصر الله الطرازى ، القاهرة : دار المعارف ١٩٦٥٠
- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم(ت٦٥٧هـ/ ١٢٩٧م) - مفرج الكروب في اخبار بني ايوب٠ تحقيق د٠ جمال الشيال ، القاهرة : سنة ٩٥٣هـ/١٢٣٩م)٠
- ياقوت ، شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومي(ت٧٢٦هـ/ ١٢٣٩م) - معجم البلدان ٠ - بيروت : دار الكتاب العربي ، سنة ١٩٨٠٠

الفهـــرس